الملاك

مجموعة قصصية

ليو تولستوي

تقديم

شهدي عطية

أعده للنشر وأشرف عليه

محمد حامد

obeikandl.com

obeikandl.com

مقدمة

طفل خجول نفور من الناس، لكنه رقيق المشاعر شديد الحس جياش العاطفة. ثم جندي يحارب في سبيل الوطن. مستهتر متهتك مبالغ في الاستهتار. وهو ملحد مغرق في الإلحاد ساخر بالدنيا. ثم هو كهل شديد الإيمان قوي الثقة في الحياة.

وأخيراً تتمخض حياة الروائي الكبير عن شيخ يعتزل ثروته ويترك المدنية بكل زينتها وخداعها ونفاقها ليعمل جنباً إلى جنب مع فلاحيه، وليفيض قلبه حنانا على الإنسانية المعذبة. وليصبح شخصية خالدة على ممر الدهور.

هكذا كان تولستوي وهكذا كانت حياته.

ثم فلسفة قوية مليئة بالحياة هي فلسفة الإيمان والعاطفة، وعاطفة قوية صريحة يدعمها العقل، ويحركها التأمل، ويفيض عليها الإلهام نورا عميقا.

هكذا كانت فلسفة تولستوي.

فلن تجد في فلسفته هذه المشكلات المنطقية، وهذا اللف والدوران وهذا التكلف والتعمل اللذان تجدهما في كثير من الفلسفات. بل لم يحاول تولستوي مرة أن يضع كتابا في الفلسفة أو يجمع آراءه في صوره مرتبة منمقة.

ففلسفته في شتات رواياته التي تتجاوز العشرين. وهي في شتات أشخاص هذه الروايات التي تعبر كل واحدة منها عن ناحية من نواحي المؤلف نفسه: عن شكه أو سخريته، عن إيمانه أو إلحاده.

ولذلك ففلسفته محببة إلى النفس. يقدمها في لون من أشهى الألوان إلى القلب: في صورة قصة أو في صورة ذكريات.

وهو لم يكن يكتب ليرتزق من وراء كتبه كمعظم الروائيين. ولم يكن يكتب ليضحك من الناس أو يسخر منهم كما فعل أناطول فرانس. بل كان يكتب معبراً عن عاطفة قوية أحست بالحياة، وشكّت في الإله، ثم آمنت به من بعد شك. ثم اعتزت بالحياة من بعد سخرية.

وهو لم يبحث في الإله وصفاته، أو في الروح وطبيعتها، أو في الجسد وعلاقتها بالروح، أو في الزمان والمكان، أو في ترتيب الخلق والموجودات، أو فيما شابه ذلك من أمهات المسائل التي تشغل بال الفلاسفة. بل كانت فلسفته من صنف آخر لا يقل جودة ولا ينقص عظمة ولا عمقا. حاول فيها أن يخفف من الآلام الإنسانية وعذابها، وأن يرشد الفرد والجماعة إلى الطريق السوي. وأن يرسم لهما مثلا أعلى يعملان من أجله. فلسفة بحثت في جميع أمراض الإنسانية فشخصت الداء وبينت مواضع الضعف. ثم أخيرا أرشدت إلى أنواع العلاج.

وقد عالج تولستوي سعادة الفرد وكيف يمكن تحقيقها، ووصف عيوب المجتمع الذي نعيش فيه. وبيّن سخافاته ومتناقضاته والطريق إلى علاج هذه المتناقضات. وبحث في الدين والعلم والفن وأخيرا في كل ما يمس المجتمع الإنساني وما يتصل بأفراد هذا المجتمع بسبب.

وسنحاول في هذه العجالة أن نطلعك على ناحية من نواحي فلسفته. ناحية حاول فيها أن يرسم للفرد مثلا أعلى. وأن ينهج له الطريق إلى السعادة التي ينشدها.

كل منا قد تساءل ما الحياة وما قيمتها؟ ولماذا نحياها هكذا؟ أخلقنا لنشقى أو عشنا لنموت؟

وكل منا مرت به ساعات من السخط على الحياة أو

الابتسام لها. لا ندري لماذا نبتسم ولماذا نسخط؟

وكل منا يرغب في سعادة هادئة مطمئنة، سعادة لا يفوز ولم يفز ويظهر أنه لن يفوز بها! ومع ذلك فنحن دائبون في العمل لها. وهي دائبة في البعد عنا.

ومر بخلد تولستوي هذه الشكوك وانتابته هذه الحيرة وجرى وراء السعادة، فأقبل يرتوي من منهل الحياة: يعربد ويهتك ويتمتع بكل ما حرم ولذ، ونال من الحياة ما لم ينله غيره.

فهو من أشراف روسيا، له من المجد ما لهم، وله من العبيد ما يزيد على سبعمائة. وهو غني في غير حاجة إلى عمل يرهقه، أو رئيس يخضع له، والطبيعة وإن لم تزوده بوجه جميل، قد أعطته من جمال الروح ورقة العاطفة ما خفف من حدة قبحه، وقلل من بشاعة منظره، وتزوج فأخلصت له زوجته، وتمتع بأشهى ما تصبو إليه نفس من وفاق عائلي وذرية صالحة.

ماذا يريد بعد هذا من أطايب الحياة ولذات المعيشة؟

على أنه لم يفز بالأمل المنشود. ولم يظفر بالسعادة ولا بظلها، بل كان ينتابه شعور بسخف الحياة وعبثها.

فهي إما ساكنة هادئة، ولكنها مملة جافة. وهي إما مضطربة هائجة، ولكنها مؤلمة قاسية. وهي في كل هذا سخيفة من دون معنى ولا غرض ولا غاية واضحة. أيعتزلها كراهب؟ ولكن أنى له الخبز الذي يملأ بطنه الجائع؟ وما قيمة حياة يعتزلها المرء؟ وأنى للإنسانية أن تعيش إذا قدر لكل فرد أن يعتزل العالم؟ وهل يجد الإنسان في العزلة راحة وهدوءا؟

أيحياها كما حيتها مئات الأجيال من قبله، وكما ستحياها من بعده؟ ولكن هذه سخافة لا تطاق. وما الذي يحمله على أن يتعذب ويتألم ويقاسي ليكون نعجة من نعاج هذا العالم

يسمن ليذبح، أو يهزل ليمرض ويموت؟ أيعتقد في حياة أخرى ليست هذه الدنيا إلا مزرعة لها؟ وما يكون إذن معنى الحياة؟ أهي تجربة سخيفة؟ وماذا يمنعنا من اختصار هذه التجربة؟ ولماذا لا نسرع فنأتي على حياة بائسة لندرك أخرى أسعد منها أو أقل منها سخفا.

وأخيراً ما هي السعادة؟ وما الطريق إليها؟ أهي ثروة وضياع وجاه؟ ولكن تولستوي جربها فلم تبدد شكوكه ولم تشبع مطامعه بل أصابه منها ملل قاتل لا يدري كنهه، وسأم مروع زهده فيها.

أهي درس وقراءة واطلاع؟ ولكن تولستوي قرأ وقرأ أحسن ما أنتجه بشر، فلم ترضه هذه القراءة، ولم تضع حدا لشكوكه، وأخيراً ما فائدة الاطلاع والمعرفة والعلم؟

وقف تولستوي من الحياة هذا الموقف، وأخذ يفكر ويجهد نفسه في التفكير لعله يوفق إلى تعريف الحياة. وأخذ يقرأ لعله يصل إلى حل يطمئن إليه أو فلسفة يرضى عنها. ولكنه حاول عبثا وبدا له أخيراً أن الفكر وإعنات الروية لن يجديا شيئا. وتملكه يأس وأخلص فيه. ولكن ما لبث أن أشرق عليه نور جديد: نور الإيمان في الله، ونور الاعتقاد في الحياة وفي عظمتها. نور وهاج قوي يقف أمامه العقل خاشعا، ولا يستطيع العلم المادي بكل جبروته أن يجابهه أو يسخر منه!

أنريد فهما للحياة ولسر وجودنا فيها؟ أنريد فوزا بالسعادة؟ حسن! فلنعمل ما تطلبه منا الحياة. ولتنفذ مشيئة الله. وما غاية الحياة؟ هي أن نعمل ونجيد ما نعمله. وليكن عملنا في سبيل الغير، ولنضح بأنفسنا في سبيلهم، ولنحبهم كما نحب أنفسنا بل أكثر مما نحبها. ولنتعاون معهم، ولننم جميع قوانا من عقلية وجسمية، ولنحسن استخدامها في خدمة الآخرين: التعاون، الحب، العمل، ثالوث مقدس هو سر الحياة وسر

السعادة. ليمتد حبنا إلى جميع أفراد الإنسانية. ولنعمل لإخواننا في البشرية، ولننس أنفسنا فنكون بذلك قد أدينا مهمة الحياة التي خلقنا من أجلها وفي هذا طمأنينة لنا وهدوء.

لقد أسأنا فهم الحياة. وحسبناها مسرحا لقتال دام يفترس فيه القوي الضعيف، ويلتهم فيه الكبير الصغير. ثم اتهمناها بالقسوة وما هي بقاسية بل هي أعز شيء في الوجود.

وبحسبنا السعادة في هذا النضال السمح، وبحسبنا الراحة في هذا القتال العنيف.

بالغنا في الأنانية، أردنا الحياة لنا وحدنا، أردنا مالا وجاها وحبا وبنين لأنفسنا ولأنفسنا وحدها.

والحياة لا تريد منا هذا، فالفرد ذرة لا معنى له في الوجود دون غيره. ذرة من أصغر ذرات العالم، فإذا ما اجتمعت هذه الذرات واتحدت وتعاونت استطاعت أن تصل إلى أقصى سعادتها وهي مستطيعة أن تنال جميع أمانيها، فإذا ما اختلفت وتناحرت وتفرقت أصبحت لا شيء. وهي واقعة في شقاء لا خلاص منه.

لقد ظننا بالحياة شراً، وقد حاولنا أن نجعل من قانون سخيف ندعوه تنازع الحياة وبقاء الأصلح قانونا للحياة. فالأفراد في تنافس، والأمم في تناحر، ومن هذا النزاع الدائم يتولد البؤس واليتم والفقر والآلام، وتتولد الإنسانية عاجزة خادعة ماكرة ضعيفة.

لننس هذه الأحقاد مرة واحدة، ولنتعاون، ولينس الفرد أنه خلق لنفسه، وليجعل غايته خدمة غيره. خدمة أولاده، خدمة أفراد الإنسانية جمعاء، إذن يخف كل شقاء. وتعم السعادة الجميع. سنقول هذا خيال شاعر وأمل فيلسوف.

ولكن تولستوي لا يقول لك ضح بنفسك لأن في التضحية نبلا أو جمالا. وهو لا يقول لك كن خيّرا لأن الجنة للخير والنار

للشرير. وهو لا يزعم أن في خدمة الآخرين قياما بواجب لا تستطيع أن تفهم من فرضه عليك. هو يقول لك أحب جارك واعمل لغيرك، لأن هذا هو قانون الحياة، ولأنك لا تملك عنه محيداً، وهو يقول ضح بنفسك لأنك ستضحي بها مرغما إذا أبيت. هو يقول لك سامح عدوك وأدر له خدك الأيسر إذا أصاب منك خدك الأيمن لأن في الخلاف شقاء لك وله.

وليس في هذا جري وراء خيال أو مثل أعلى يضاف إلى غيره من الأمثلة العليا. ولكن جرب بنفسك. اقتنع بأنك خلقت لغيرك وسترى أي سعادة ستجلبها عليك هذه التجربة، لن يخيفك الموت بعد هذا لأنك سترى فيه إفساحاً للطريق أمام غيرك. لن تعبأ بالآلام تصيبك لأنك سترى فيها تخفيفا لآلام اخوتك من البشر.

أما إذا أبيت هذا، وضننت بنفسك أن تكون ضحية في سبيل الآخرين، فكن أنانيا جشعا وابلغ المجد على أكتاف الناس، واجمع حولك من متاع الدنيا ما تسرقه وما لا تسرقه، ولكنك لن تكون سعيدا. وستظل شقيا بائساً، ولن تشعر براحة ما دام لديك ذرة من ضمير. وستمعن الحياة في السخرية منك، تجعلك آلة لها تنفذ مشيئتها، وستكون ضحية على رغم أنفك، وستعيش خائفا وجلا من الموت أو من خصم قوي، وسيؤنبك ضميرك، ولا يلبث أن يضيع ما أنفقت حياتك من أجله، سيلتهم مالك وجاهك من هو أقوى منك، أو لا تلبث أن تموت، فيتمتع به غيرك، وبذا تكون الحياة قد انتقمت منك شر انتقام.

وليس معنى خدمتك للغير أو تضحيتك بالنفس أن تنسى ذاتك أو تعتبرها كمالاً مهملًا في الوجود. إذ هي شرط من شروط الحياة وشرط هام لا تستطيع الإنسانية أن تتحقق بدونه، ولكنها ليست غاية الحياة، وليس من أجلك وحدك قد

كانت الحياة.

وليس معنى هذا أن تكبت غرائزك أو تحمل نفسك ما لا تطيق. بل وجِّه نشاطك إلى ما خلق له..

في مثل هذه اللغة البسيطة الساذجة القوية يحدثك تولستوي. ولا يضير فلسفة تولستوي أن تبدو شعرية عاطفية إذ هي لا تكاد تخرج عما قالته الأديان. فالمسيحية ومن قبلها اليهودية ومن بعدها الإسلام تبشر بما قاله تولستوي. وكلها حضت على التعاون وقالت أن المؤمنين اخوة وأحب لغيرك ما تحب لنفسك. وكلها رفعت من شأن العمل للآخرين وكلها حضت على الإيثار وكلها أمرت بالتقرب إلى الله وحده وجعلت منه رمزا للوحدة.

لم يأت بجديد. ولكنه أحب أن يثبت أن ما قالته الأديان صحيحا، وأنه عملي، وأنه الطريق الأوحد إلى السعادة الفردية والإنسانية، وأحب فوق هذا أن يبين أن ما قالته الأديان ليس مثلا أعلى يصعب تحقيقه، بل هو الغاية التي لا محيد عنها، والشيء الذي نعمله كارهين أو راضين.

لقد رأى أن الحياة لا معنى لها في الأفراد مشتتين. بل لا يمكن تصورها إلا في الأفراد مجتمعين متعاونين. وقد رأى أن للحياة غرضا بسيطا هو أن يلتئم الأفراد ويتحدوا، هو أن تجتمع الذرات الإنسانية لتصبح ذرة واحدة كبيرة ترجع إلى خالقها. وفي هذا الاتحاد كل سعادتها.

ولم ير الحياة الدنيا إعداداً لحياة أخرى كما ترى معظم الأديان بل وجد فيها سلسلة لا تنقطع. فليس في موت الأفراد انتهاء للحياة. بل موتهم معناه بقاؤهم في نسلهم، ومعناه حلقة جديدة قد تكون أحسن استعدادا وأكثر تضامنا.

وهو متفائل راض مطمئن على مصير الإنسانية، فهي تسير إلى الوحدة منفذة في ذلك مشيئة خالقها.

وهو يرى أن كل ما فينا أعد لتنفيذ غاية الحياة. ففينا حب الحياة لنستطيع أن نحيا، وفينا حب النشاط والحركة وكره السكون حتى نعمل، وفينا الجانب الحيواني بكل غرائزه لنستطيع أن نعمل، وفينا العقل لنفهم كيف نعمل والى أي غاية نسير، وفينا الضمير ليؤنبنا وليحاربنا إذا ما حاولنا الحياد عن الغاية المرسومة لنا. وفينا غريزة النسل لتخرج ذرية أقوى تستطيع أن تتمم ما تريده الحياة إذا ما ضعفنا أو متنا.

يعد تولستوي الشقاء الذي نشعر به نتيجة طبيعية لمخالفتنا ضمائرنا التي تفهم وحدها الغرض الوحيد من الحياة. وتنبهنا كلما حدنا عن الطريق المستقيم، وهذا الشقاء داع إلى تفكيرنا في أنفسنا. والى شعورنا بالحياة وغرضها.

ويعلل تولستوي الحيرة والقلق اللذين يستوليان على المرء بأنهما نتيجة لإهماله واجبه المقدس في الحياة، وإغفاله العمل، أو لمقته الآخرين وترك معونتهم. وهذه الحيرة نفسها خطوة أولية نحو الشعور بالحياة والتأمل فيها والوصول إلى فهمها.

وهو يرى في العقيدة والإيمان ملجأ حصينا من الشك والتورط فيه. إذ العقيدة النيرة الحية البعيدة عن التعصب، هي التي تدفعك إلى العمل وحب الغير وتجعلك طفلا فرحا سعيدا وهي التي تجعلك هادئا قرير العين بالحياة.

قد تقول أن هذا شيء تعرفه. وأنه لم يأتك بجديد. ولكن تولستوي لم يحاول أن يبهرك بآراء غريبة تضعها بين آلاف الآراء، ولم يحاول أن يتحفك بطريف الأفكار. بل أراد أن يرشدك إلى منهاج السعادة في الحياة وهو منهاج عملي جربه بنفسه فنجح فيه نجاحاً باهراً.

أحب جارك. أحب لكل إنسان ما تحبه لنفسك؛ اعمل

لغيرك، ففي كل هذا سعادتك.

لا تقل أن غيرك لا يعمل لهذا، فليس معنى تقصيره أن تقصر أنت، ولا تسأل لماذا تكون أنت الوحيد الذي يختط لنفسه هذا الطريق.

بل اعتقد أن الناس لا بد صائرون إليه، وأن لا مرية في أنهم منتهون إلى اتباعه. فلماذا لا توفر على نفسك شقاء؟ ولماذا تضن على نفسك بالطمأنينة والسعادة؟

عشق تولستوي المدنية الاوربية، فطاف في أنحاء أوربا وأعجبه منها تقدمها الآلي ونظامها المتسق. وبهره فيها حركتها الدائمة ونشاطها المتجدد.

ولكنه ما لبث أن نفذ إلى أعماقها. وكفاه أن يرى في تجواله رجلا يشنق في باريس أم المدنية على مرأى ومسمع من الجماهير حتى ينقلب ساخطا متذمراً متشائماً. وحتى يرجع إلى روسيا غضبان أسفا، فيهاجم الحضارة الحديثة في سخرية لاذعة وتهكم مر.

تناول تولستوي الناحية النفسية من المجتمع. وأخذ يصورها بقلمه الماهر تصويراً دقيقاً.

فبين أن حياة العامل اليوم أشقى بكثير من حياة الرقيق بالأمس. فقد كان يؤمن هذا إيماناً لا يخامره الشك انه خلق عبداً. وأن الله أراد أن يكون هناك أحرار وعبيد. وكان يوقن أن لا مرد لأمر الله، وفي هذا الإيمان تعزية. وفي هذا الاعتقاد سلوة. .

أما العامل الحر اليوم فقد علموه المساواة، فلا نبيل ولا حقير. ثم هو يرى أن عليه أن يتعب، ولهم أن يستريحوا. ومن واجبه أن يشقى، ومن حقهم أن يسعدوا وهو ولا شك غير راض بهذا ولا قانع، ولابد له أن يتساءل لماذا يشقى؟ وهو منته إلى الشك في عدل هذا العالم وإنصاف القائمين بأموره.

وفي هذا الشك. وفي ذاك التساؤل تعس ليس بعده تعس، ثم رجل الطبقات الوسطى لا تقل حالته النفسية عن حالة العامل تناقصاً واضطراباً: إذ يرى عجبا، يرى قوما إذا ما أجادوا التمليق وأحسنوا الاحتيال وداسو على الشرف والكرامة ارتفعوا على أكتاف الغير وتولوا قيادة الأمم، ثم طائفة أخرى تتمسك بالأمانة وتتعلق بالشرف. وهي أبية لا تقل ذكاء ولا مهارة عن الأولى ولكنها مهما كدت وجدت فنصيبها في الحياة القدح المنيح، ثم هو متعجب لماذا يجب عليه أن يؤدي ضرائب ثقيلة على نفسه لتتمتع بها قلة مستهترة. وماذا يحمله على محاربة الموت في ميدان القتال، ما دام الغنم كله راجعاً إلى القواد والساسة!؟ ويزيده شقاء على شقاء انه مضطر إلى مجاراة العالم في نظمه وأساليبه، وهو يحمل لها بين طوايا نفسه انتقاماً مراً. ورجال المناصب وقادة الأمم من ساسة وحكام لهم آمال عريضة ومبادئ قويمة. ولكنهم إذا ما تولوا الحكم وقبضوا على أزمة الأمور انتهوا إلى منهاج من سبقهم واضعين مبادئهم في أحد أدراج مكاتبهم التي يستريحون إليها!

ويمتد هذا التناقض إلى نفسية الأمم كمجموعة. فليس أعجب من أمم مسيحية تعتنق ديناً يدعوها ألا تقابل الشر بالشر وأن تدير الخد الأيسر لمن يلطم الخد الأيمن. وهي لا تتورع عن قتال دام تعد له أشد الآلات فتكا لإهانة تافهة، أو لطمع أشعبي في قطعة أرض أو تصريف محصول.

فرق بعيد إذن بين ما يعتقد البشر وبين ما يعملون. وبون شاسع بين ما يؤمنون انه واجب أن يكون، وما هو كائن بالفعل، وفي هذا سر الشقاء والبؤس الذي يسود العالم.

كان من نتيجة هذا الخلاف بين ما تراه ضمائرنا وما تعلمه أيدينا أسوأ العواقب. فالنظم والأوضاع الاجتماعية الحديثة لا تستند إلا إلى القوة. ولا تقوم إلا بالعنف.

فليس من حكومة تستطيع أن تدبر أمر دولة دون أن يكون من ورائها شرطة تجبر الناس على الطاعة. وليس من قانون يسري إلا إذا اعتمد على قوة تنفيذية تضطر الناس إلى الإذعان له، وليس من عمل يدار إلا إذا تحكم أصحاب رؤوس الأموال في العمال، ويتجلى هذا العنف في أبسط نواحي الحياة الاجتماعية أو أكثرها تعقيداً من العلاقات العائلية إلى العلاقات الدولية، فلا يتاح لأسرة أن تستمر إلا إذا استبدت المرأة بالرجل أو الرجل بالمرأة، ولا يمكن لنزاع إن يحسم بين دولة وأخرى إلا إذا أريقت الدماء وأزهقت الأرواح

ولو ترك الناس وضمائرهم لما جبيت الضرائب، ولما لفت الجيوش، وما كان ليخطر ببال إنجليزي أن يقتل فرنسيا، ولا فرنسي أن يستعبد سوريا

ولو كان الأمر شورى والمبادئ التي نودي بها من مساواة وإخاء حقيقة واقعة لما وجدنا طبقة حاكمة وأخرى محكومة. وما كان يتاح لأحد أن يسعد ولآخر أن يشقى.

ونحن نحس كل هذا ونشعر أن ما نعمله مساقون إليه سوقا ومدفوعون إليه دفعا. وإنا لا نستطيع مع الأنظمة الحالية صبراً، ولكن لسنا من الشجاعة الأدبية بحيث نجهر بضرورة تغيير نظام العالم وبوجوب قلبه رأساً على عقب.

لقد أصبحت المدنية الحالية نسجاً مهلهلاً ونظاماً معطلا لا يصلح لما يجيش في نفوسنا ويجول في عقولنا. وأمست رياء وخداعا تتدثر بمسوح كهنوتي لتخفى فجورها وشراستها. فهي إن استعبدت الأمم فلكي تأخذ بيدها إلى الرقي! وهي إن لجأت إلى القوة في هذا السبيل فذلك عمل إنساني نبيل.

نعم. لقد أصبحت النظم الحالية من سياسية واجتماعية واقتصادية نظماً عتيقة لا تشرف الإنسانية في قليل أو كثير.

ولكن. أي نظم تستبدلها بها. وعلى أي صورة تكون هذه

النظم هذا ما بحثه تولستوي، وكان من نتيجة بحثه أن وصل إلى رأي قاطع.

ولم يكن رأي تولستوي خيالاً أو أديالاً يستحيل تحقيقه، ولم يتطلب من البشر أن ينسوا بشريتهم ليصبحوا ملائكة.

وهو لا يقول لك أكثر من أن تتبع التاريخ لتتبين بنفسك مجرى الإنسانية إلى أين تسير وفي أي اتجاه تتجه.

لقد أتى على العالم حين من الدهر كان فيه أسراً وعشائر. وكانت الأسر في تطاحن وتناحر، يعتقد أفراد كل أسرة أن سعادتها في التغلب على الأسر الأخرى. ثم ظهر لهم أن لا ثمرة يجنونها من قال طويل ممل. فاندمجت الأسر في قبائل.

وبدأت القبائل دوراً آخر من أدوار التاريخ سودت صفحاته بحروب الغلبة والثأر. ثم ما لبثت أن تحققت بدورها أن سلامها في تعاونها فاتحدت القبائل. وكان من نتيجة اتحادها هذه الدويلات التي عظمت حتى سميت بعد بإنجلترا وفرنسا والولايات المتحدة. . . في تتبعك لهذا الأدوار استكشاف لسر الإنسانية. فهي تتجه إلى الوحدة. وتسعى إلى الالتئام فليس من المستحيل أن تصبح الدول دولة واحدة. وبذا تنقطع من صفحات التاريخ سلسلة المجازر البشرية.

قد تقول أن هذا حلم فيلسوف وخيال شاعر. وأن ليس من الوطنية مفر. ولا من الحرب بد، وأن الشقاء والبؤس من لوازم هذا العالم. ليس في الإمكان أبدع مما كان.

ويضحك منك تولستوي. ويقول إن ما تحسبه اليوم قد حسبه أجدادك من قبل. فالأثيني ما كان يخطر بباله أن يتعاون مع أخيه الإسبرطي تحت علم واحد متناسياً أحقاده مضحياً بمصلحة مدنيته في سبيل اسم أجوف دعوه اليوم دولة اليونان وإنجلترا التي يضحي الإنجليزي من أجلها بنفسه وماله. لم يكن لها من قبل وجود. وما كان يتصور الاسكتلندي

أو الايرلندي قبل بضع مئات من السنين أن يأتي وقت يتنازلان فيه عن استقلالهما الشخصي وتقاليدهما الموروثة وليصبح لهما وطن مشترك، وعنوان واحد، والرقيق كان يحسبه البعض منذ مائة سنة ضرورة من ضروريات الحياة وقانوناً طبيعياً إرادة الله وليس إلى تغييره من سبيل.

وأين الرقيق اليوم؟

وهكذا، فما تتخيله اليوم من أن اتحاد البشر أمر محال وأن إلغاء الحروب خيال بديع سيصبح بعد غد حقيقة واقعة وشقاؤك آت من أنك تؤمن بضرورة هذا الاتحاد، ولكنك تحكم باستحالته. وسعادتك لن تتحقق إلا إذ اعتقدت بإمكانه فتعمل له هذا اليوم الذي تختفي فيه الوطنية لتحل محلها الإنسانية. وتتنازل فيه الدول عن بعض حقوقها لتعيش في هدوء وسلام هو الضالة التي يجب أن ننشدها وهو الغاية التي يجب أن نقصدها. ثم هو النهاية التي لا شك إنا واصلون إليها.

كيف يتحقق هذا الحلم الجميل؟ ذلك ما يجيبك عنه تولستوي مرة أخرى.

لن يحقق هذا الحلم مؤتمرات تعقد ومعاهدات تمضى أو نظم تعدل وقوانين تفرض.

وان مؤتمرا يجتمع ويتلوه مؤتمرات أخرى لا تحل مشاكل العالم. وان سكنت ألم الإنسان إلى حين، والمعاهدات قصاصات ورق لا تغير شيئا ولا تدفع مضرة، ولا يخفف من البؤس الواقع حزب اشتراكي يتولى أو حزب محافظ يتحكم. فليس معنى ذلك إلا إن طبقة حلت محل أخرى. وأفراداً استبدل بهم أفراد. وليس معناه إلا أن يبقى النظام الحالي بضرائبه المرهقة وحواجزه الجمركية المشتطة وميزانيته العجيبة ينفق ثلاثة أرباعها على أعداد الجيوش وتجهيز الحروب.

إن الإصلاحات التي تفكر فيها الجماعات الحديثة من تحديد ساعات العمل أو تنظيم علاقات المالك والأجير على ما فيها من الفائدة لا تجتث الشر من أساسه. فكيف الطريق إذن؟

أثورة دموية لا تبقي ولا تذر؟ تراق فيها دماء الطبقة الحاكمة ويزهق فيها أرواح الأغنياء؟

ولكن تولستوي كان آخر من يدعو إلى العنف وآخر من يفكر في مقابلة الشر بالشر. إن التعاون لا يمكن أن يقوم على سفك الأرواح. والرخاء من المستحيل أن يعتمد على أسنة الحراب. وما كانت الإنسانية التي بشر بها تولستوي ليكون الطريق إليها مغطى بالدماء حافلاً بانين المجروحين وجثث القتلى.

لقد قامت الثورة الفرنسية باسم اشرف المبادئ الإنسانية وعلى أكتاف اشد الناس حماسة وإخلاصا. وحسب الناس إن نوراً جديداً قد اشرق يلوح بالسلام المنشود والهناء الدائم. ولكن الثورة الفرنسية لم تنجح كثيرا. ولم تفعل رغم الادعاءات العريضة التي بشرت بها إلا أن تحل طبقة محل طبقة أخرى وتستبدل اسما باسم وملكية بجمهورية.

وفشلها راجع إلى إنها قامت على العنف وإراقة الدماء. إن الشر لا يجب أن يقابل بالشر،

وإن اكبر ما يعاب على المجتمع الحالي اعتقاده إن الثورة الدموية هي الطريق للخلاص، وان الحرب شر لابد منه. وان القتال قانون طبيعي لولاه لازدحم العالم بالسكان ولما وجدوا قوتا يكفيهم. وليس اسخف من هذا الزعم زعم. فان اشد ما يعتز به الفرد هو حياته، واقدس واجب لديه هو المحافظة على هذه الحياة والعمل على إبقائها. واكبر أمنية للإنسان هو الخلود أو العيش إلى أطول العمر، فتناقض إذن إن تزعم أن قانون الحياة هو الموت أو إن من الضروري أن يقتل الأخ أخاه.

لقد دعا تولستوي إلى السلام والإخاء الإنساني. وأهاب بالإنسانية القضاء على التسلح والمقاومة.

وقد يبدو إن هذا أمر ثانوي لا علاقة له بإصلاح العالم. ولكن ليعتقد الأفراد جميعا أن الشر هو في الحروب. وان بؤس الإنسانية راجع إلى العنف والاستبداد، وليؤمنوا بالسلام وضرورته، وستسقط بطبيعتها جميع النظم القائمة. فلن تقوم حكومة من الحكومات إلا إذا استندت إلى إرادة الشعوب، ولن يوضع قانون إلا إذا رغب فيه الأفراد. ولن تسير دفة العمل من الأعمال إلا إذا كان قائما على التعاون والاشتراك. ولن تجد نزاعا بين دولة وأخرى إلا ويفض في بضعة أيام عن طريق التحكيم. فتولستوي يرى من العبث التفكير في كيف تكون الحكومة. أو على أي أساس تشرع القوانين. إذ الحكومة لديه ليست إلا مجموعة أفراد والقوانين ليست إلا من وضع بضعة أفراد. والدولة لا معنى لها إلا بمجموع أفرادها!

ففي إصلاح افرد وحده. وفي الارتفاع بعقليته والسمو بنفسيته أساس المدنية المستقبلة. ماذا يجدي أن تصلح من شان حكومة، إذا كان القائمون بها هم هم لم تتغير نفوسهم.

لن يجدي هذا نفعا. ولكن يكفي أن يعتقد كل فرد بوحشية الحروب في سبيل قطعة ارض أو من اجل شهرة وطنية كاذبة. ويكفي أن يمسي هذا الاعتقاد عملا حتى يشرق الصباح عن اختفاء آلة الحرب من الأرض.

ويمكن - إذا آمن الناس بضرر الفروق الاجتماعية بين الطبقات وما يساعد على إبقاء هذه الفروق من قانون الوراثة ونظام الملكية - أن تختفي الملكية فجأة وتحل المساواة بين البشر.

ولا شك انه لو أيقن كل إنسان أن سعادته في خدمة اكبر مجموعة إنسانية يستطيع خدمتها لانهارت من أساسها ما

نسميها الوطنية التي تراق من اجلها الدماء وتزهق تحت علمها ملايين الأرواح. ويجر باسمها الخراب والدمار والارتباكات المالية الاقتصادية.

فلتقم الشعوب. لا بل لتقم طائفة منها تعلن أن كفاهم رياء وخداع، وانهم لن يخضعوا إلا لما توحيه إليهم ضمائرهم، ولن يعملوا إلا ما تحتم عليه مبادئهم. فلا يذهبون إلى قتال يعتقدونه شرا ولا ينفذون قانون لا يرون فيه خيرا. ولا يدفعون ضريبة لا معنى لها. ولاشك أن كل مساوئ العهد الحالي تصبح في خبر كان.

إن للرأي العام قوة عظيمة تسير الحكومات والدول. فإذا ما أراد الرأي العام شيئا فهو واصل إلى ما يريد. والرأي العام ساخط متذمر من النظام الحالي وهو يريد أن يعمل شيئا، ولكن لا يعرف ما يريد ولا يدري ماذا يعمل.

قد تسأل: ومن له الشجاعة ليقوم بهذه الدعوى ومن له الاستعداد لما قد تجره عليه من اضطهاد وسجن وتشريد؟

ولكن تولستوي يعجب: لماذا تنتظر الإنسانية منقذاً من السماء أو مسيحاً يهبط إلى الأرض.

إن نفسية الجماعات الحالية لا تحتاج إلا إلى بضعة أفراد بل فرد جريء يرشدها إلى طريق العمل حتى تقوم قومة رجل واحد.

إن صلاح نفوس الأفراد وتربيتهم من اخطر ما يدعو إليه تولستوي، وهذه التربية أما أن تتناول الصغار أو الكبار. فهي للكبار بث العقيد الإنسانية فيهم وإقناعهم أن لا فائدة تعود عليهم من حرب ضروس، والإهابة بهم إلى نبذ العنف وإحلال الوئام والصفاء.

وأما تربية الصغار فهي أجل وأعظم شأنا.

ولقد سدد تولستوي إلى التربية الحديثة سهاما مسمومة.

وكال لها تهما شنيعة، وليس يعنيه من أمر المدرسة علوم تحشى بها أذهان الطلبة المساكين ولكن يعنيه روح التربية.

فالتربية الحديثة تساعد أحط الغرائز على الظهور والنمو، فهي تبث التنافس والغيرة والحقد في نفوس الأطفال وتشبعهم بفكرة العقاب والثواب، وتلقى في روع الطفل الأنانية وحب الفوز على أكتاف إخوانه من التلاميذ. فهو يهنأ على تقدمه عليهم، ويكافأ إذا بذهم وفاقهم.

وهي فوق ذلك تربية عسكرية تهمل شخصيات الأطفال إهمالا وتزعم أنها مستطيعة أن تشكل عقليات متغايرة تشكيلا واحدا. وهي مضطرة في سبيل هذا ان تخضعهم لنظام معين وتجبرهم بالقوة على التزام حركات خاصة والجلوس في غرف ضيقة مما ينفر الطفل من المدرسة والمدرسين، ومما يكبت فيه ميوله الطبيعية ومواهبه.

إن الطفل له شخصية قائمة، وليس يتاح لأي مدرس أن يفهمه على حدة فيعرف ما يلائمه وما لا يلائمه. والمدرسة الوحيدة التي يمكن ان ينال فيها الطفل تربية صحيحة هي البيت.

نعم هي منزله. حيث يجد الحنو والشفقة الأبوية. وهي مسكنه حيث تراعي ميوله وحيث يفهمونه فهما حقا. وبذا يرفع تولستوي من شأن التربية المنزلية ويجعلها في المكانة الأولى. وقد جره هذا، إلى البحث عما إذا كان البيت والعائلة الحالية يصلحان مكانا لتربية الأطفال.

وجوابه أن لا.

فنظام الزواج الحالي نظام عتيق فاسد، والعلاقات العائلية اليوم كبقية العلاقات لا تستند إلا على الرياء والعنف. فالمال يتحكم تحكما في العلاقات الزوجية. والرجل الغني هو كل شئ في الزواج الحديث. مهشما كان أو مريضا، ضعيفا أو

منحطا. فهو يرحب به لأنه ذو مال، ولأنه اقدر من غيره على الأنفاق. والفتاة الحديثة لا تكاد تفهم مهمتها التي خلقت من اجلها والزوجات يرون فالالتصاق بالبيت عارا أو تأخرا. بل يحسبن في الأطفال عبئا لا يتفق والسهرة ومحال الرقص. ولا ينسجم والرقة والأناقة. ومن هنا دعا تولستوي إلى هدم نظام الزواج هدما يتناول الأساس فالأم كما يرى تولستوي يجب ان تختار لابنتها زوجا قوي الجسم ممتلئ الصحة محبا للعمل ناسية مكانته الاجتماعية غير ناظرة إلى جيبه انتفخ بالأوراق المالية إن لم ينتفخ.

والزوجة يجب ان تؤمن بأن عظمتها في المنزل، وفي إنشاء طفلها الذي قد يتحكم يوما في مصير العالم. وهي إذا كانت قد تلقت أرقى العلوم فلكي تحسن إدارة بيتها. وهي ان درست ووفقت في الدرس فلكي تجيد تربية طفلها. فالمرأة في يدها مستقبل هذا العالم.

ولكن أي امرأة؟ ليست هي هذه المرأة المستهترة، ليست هي سيدة الصالونات. ولكن ربة البيت والأم الرحيمة تنشئ أطفالها على حب السلام وحب الآخرين. وتربي فيهم كراهية الشر ومقت العنف.

لقد نادى تولستوي بكل هذا في إخلاص وإيمان وبعد تفكير طويل وتدبر ليس بالقليل، وقد توافق دعوته وقد لا توافق. وقد تحسبها الحكمة بعينها أو خيالا متطرفا. ولكن لا يسعك إلا أن تعجب بالرجل أو تعجب بإخلاصه، وان تجد أيضاً في دعوته الحق أو بعض الحق.

شهدي عطية

مقهى صورات

كان في بلدة صورات من أعمال الهند مقهى يجتمع فيه المسافرون من جميع أطراف العالم فيتحاورون ويتسامرون.

وفي يوم من الأيام هبط إلى هذا المقهى عالم روحاني فارسي أفنى حياته في درس اللاهوت وفي التأليف فيه. ومن كثرة ما فكر وقرأ وكتب وناقش اختلط عليه الأمر وأصبح لا يعتقد حتى بوجود إله. فلما سمع الشاه بذلك نفاه عن بلاد فارس.

وكان لهذا الرجل عبد أفريقي لا يفارقه لحظة، فلما دخل سيده المقهى جلس هو على صخرة بجانب الباب تحت أشعة الشمس يطرد عنه الذباب. فلما استوى الفارسي على أحد المقاعد طلب من النادل كوباً من الأفيون. ولم يكد يفرغ من شربه حتى أخذ الأفيون يعمل عمله في رأسه، فقال يخاطب عبده من الباب وقد كان مفتوحاً:

(قل لي أيها العبد البائس هل تعتقد بوجود إله؟)

فأجاب العبد: (طبعاً). وفي لمح البصر أخرج من منطقته تمثالاً صغيراً من الخشب وقال: هاهو ذا. ذلك الإله الذي حماني وحرسني من يوم ولدت. وكل واحد من بلدنا يعبد الشجرة التي منها صنع هذا الإله.

دهش كل من كان في المقهى لهذه المحاورة الشاذة بين الفارسي وعبده. وما أتم العبد كلامه حتى انبرى له واحد وكان من أتباع برهمة إله الهنود وقال: (أيها الغبي الحقير! أتعتقد أن في الإمكان أن يحمل الله في منطقة رجل؟ لا يوجد غير إله

واحد هو برهمة، إنه أعظم من جميع العالم، لأنه خلقه. برهمة هو وحده الإله العظيم، ولأجله شيدت المعابد على ضفاف الكانج وفيها يعبد البراهمة كهنته الحقيقيون الذين هم وحدهم يعرفون الإله الحقيقي دون سواهم. لقد مضي عشرون ألف سنة على ظهوره، وبالرغم من الفتن والثورات المتوالية ظل هؤلاء الكهنة قابضين على ناصية الأمور، وما ذلك إلا لأن برهمة قد حرسهم وحماهم طول هذه السنين).

قال ذلك البرهمي وهو يعتقد إنه أقنعهم جميعاً، إلا أن صيرفياً يهودياً كان حاضراً فأجابه

قائلاً: (كلا، ثم كلا. إن معبد الإله الحقيقي ليس في الهند، والإله الحقيقي ليس إله البراهمة، وإنما هو إله إبراهيم واسحق ويعقوب، ولا يحمي أحداً غير شعبه المختار. . . بني إسرائيل. إن شعبنا هو شعبه الذي يحبه، وما تشردنا في أنحاء العالم إلا لأنه يريد تجربتنا. ولقد وعد بجمع شتات شعبه في أورشليم، وعندئذ - في معبد أورشليم، أعجوبة العالم القديم بعد رده إلى سالف عزه ورونقه - سوف يحكم الإسرائيليون جميع الأمم).

وهنا أجهش اليهودي بالبكاء، وأراد أن يستمر في الكلام إلا أن مبشراً إيطالياً قاطعه قائلاً: (إن هذا الذي تقوله ليس حقاً، لأنك تنسب الظلم إلى الله جل جلاله. وإنه لمن المستحيل أن يحب الله شعبك أكثر من بقية الشعوب. إن كان حقّاً ما يقال من أن الله في القديم قد فضل الإسرائيليين واصطفاهم على باقي العالمين، فإنه قد مضى ألف وتسعمائة سنة على خروجهم عليه وإغضابهم إياه، مما أدى إلى هلاكهم وتشريدهم في بقاع الأرض حتى لا ينتشر مذهبهم. ولقد اضمحل إلا من بعض أنفاس تصعد هنا وهناك. إن الله سبحانه وتعالى لا يفضل أحداً على أحد، ولكنه يدعو هؤلاء الذين يبغون

الخلاص إلى أحضان كنيسة روما الكاثوليكية، ولا خلاص لمن كان خارج حدودها).

فألتفت قسيس بروتستانتي - اتفق إن كان حاضراً - إلى المبشر الإيطالي بوجه ممتقع وأخذ يقول له:

(كيف جاز لك أن تقول أن لا خلاص إلا لمن كان تابعاً لمذهبكم؟ لا يخلص إلا هؤلاء الذين يخدمون الله من صميم قلوبهم كما جاء في الإنجيل وكما أشار به المسيح).

عندئذ التفت إلى هذين المسيحيين، تركي من موظفي الكمارك في صورات، وقد كان جالساً في المقهى يدخن في (غليون)، وقال لهما بلهجة المسيطر:

(اعتقادكم في الديانة المسيحية باطل. لقد حل محلها قبل ألف ومائتي سنة دين صحيح هو دين محمد (ص). ليس لك إلا أن تجيل بصرك في أرجاء العالم لترى انتشار هذا الدين الصحيح في أوربا وآسيا، حتى في بلاد الصين المستنيرة. لقد قلتما أنتما إن الله غضب على اليهود وازدراهم. وذكرتما على سبيل المثال حالة اليهود الآن وما يقاسونه من ذلة ومسكنة، فما أحرى بكما أن تعترفا بصحة دين محمد لأنه هو الوحيد الظافر المنتشر طولاً وعرضاً. لا ينجو سوى تابعي محمد (ص) خاتم أنبياء الله).

وهنا أراد الفارسي، وهو من أتباع الرسول العربي (ص) أن يتكلم؛ إلا أن جدالاً عنيفاً شجر بين جميع الأجانب الموجودين المنتمين إلى مذاهب شتى، فقد كان بينهم مسيحيون من الحبشة، ولاميون من تيبت، واسماعيليون ومجوس؛ وكان جدالهم في الله وكيف يجب أن يعبد؛ وكل يؤكد أن الله الحقيقي لم يعرف ولم يعبد إلا في بلده.

لم يبق واحد في المقهى لم يشترك في هذا الجدال والصياح إلا صينياً من أتباع كونفوشيوس. كان جالساً يرشف الشاي

ويستمع إلى المتكلمين دون أن ينبس ببنت شفة. فلما رآه التركي جالساً على هذه الحالة تقدم إليه محاولاً اجتذابه إلى رأيه بهذه الكلمات: (أنت لم تنطق أيها الصيني العزيز حتى الآن بكلمة، ولم يكدر صفوك كل هذا الصخب، ولكنك إن تكلمت ففي وسعك أن تؤيد ما أقول. لقد حكى لي بعض التجار الصينيين الذين يطلبون مني المعونة، أنكم معشر الصينيين تعتقدون على كثرة ما عندكم من الأديان والمذاهب أن الديانة الإسلامية هي أفضل الديانات وأنكم تعتنقونها عن طيبة خاطر. أيّد إذن كلماتي وأبن لنا رأيك في الله الحقيقي ونبيه).

فهتف القوم صائحين: (حسن، حسن) ثم التفتوا إلى الصيني وقالوا (أسمعنا رأيك في هذا الموضوع).

فاغمض الصيني عينيه وأخذ يفكر ثم فتحهما ثانية وأخرج يديه من كمي ردائه العريضين وطواهما على صدره وأخذ يتكلم بصوت هادئ رزين:

سادتي: يظهرلي أن الذي يحول دون اتفاق الناس في قضايا الدين يرجع خاصة إلى الزهو الفارغ. فإن تفضلتم فأصغيتم إلي فسأقص عليكم قصة توضح لكم ما غمض من هذه المشكلة:

تركت الصين قاصداً هذه البلاد على ظهر باخرة إنكليزية طافت حول العالم. وقد رست هذه بنا الباخرة على الساحل الشرقي من جزيرة صومترا لنفاد الماء. وكنا جماعة من مختلف الأجناس، وكان الوقت ظهراً، فنزلنا إلى البر وجلسنا تحت شجرة من شجر جوز الهند على شاطئ قريب من القرية. ولما جلسنا تقدم نحونا رجل أعمى علمنا بعدئذٍ انه فقد بصره من كثرة ما حدق في الشمس محاولاً سبر أسرارها ومعرفة كنهها. سعى كثيراً للوصول إلى مبتغاه وأطال التحديق في الشمس دون أن يدركه إعياء حتى احرق وهج الشمس عينيه فاصبح

أعمى. وبعدما فقد بصره صار يكلم نفسه: (نور الشمس ليس سائلا، إذ لو كان كذلك لكان في الإمكان صبه من آنية في أخرى وتحريكه كما يحرك الهواء الماء؛ ولا هو نار، إذ لو كان ناراً لأطفئه الماء، ثم هو ليس روحاً لأنه منظور، ولا هو مادة لان المادة تنقل، وبما أن نور الشمس ليس سائلا ولا نارا ولا روحاً ولا مادة فهو إذن لا شيء).

على هذه الطريقة كان يحاور. وبنتيجة تحديقه المستمر في الشمس وكثرة التفكير فيها كما أسلفنا فقد بصره وعقله وأصبح لا يعتقد بوجود الشمس.

وكان لهذا الأعمى عبد يقوده، فلما اقتربا منا أجلس العبد صاحبه تحت شجرة وارفة، ثم التقط جوزة من الأرض وأخذ يصنع منها سراجاً: أبتدأ أولا بتقشير الجوزة، ثم أخذ ليفة فبرمها ثم عصر دهناً من الجوزة في القشرة، ثم نقع الفتيلة فيها فاصبح له من ذلك سراج يضيء له الظلام.

وهنا تنهد الأعمى وقال لعبده: (ألم أكن على حق حين قلت لك يا عبد أن لا وجود للشمس؟ ألا ترى هذا الظلام الدامس؟ ومع ذلك يقول الناس بوجود الشمس! إذا كان صحيحاً ما يقولون، فما هي؟)

قال العبد: (لا أعرف ما هي الشمس. تلك ليست مصلحتي، ولكني أعرف ما هو النور ها قد صنعت نوراً أستطيع به أن أخدمك وأن أجد كل ما أطلبه في الكوخ).

وهنا التقط العبد قشرة الجوز قائلاً: (هذه شمسي) وكان رجلاً اعرج جالساً وإلى جانبه عكازه ينصت إلى هذا الحوار الشائق، وما كاد يلفظ العبد كلمته الأخيرة حتى أغرق في الضحك وقال يخاطب الأعمى:

يظهر انك ولدت أعمى! ولما كنت لا تعرف ما هي الشمس فسأقول لك ما هي. الشمس كتلة من نار تخرج من البحر كل

صباح، وترتفع ثم تهبط كل مساء، وتتوارى بين جبال جزيرتنا. لقد رأى الناس جميعاً هذا، ولو كنت بصيراً لرأيتها أنت أيضاً.

ثم أعقبه سماك كان يستمع إلى الحديث موجهاً الكلام إلى الأعرج:

(يظهر لي أنك لم ترما وراء جزيرتك. ولو طفت كما طفت أنا في زوق الصيد لعلمت أن الشمس لا تغيب في جبال جزيرتنا، ولكنها كما تشرق من البحر كل صباح، تغيب في البحر كل مساء. إن هذا الذي أقوله لك صحيح لا شك فيه لأني أشاهده بعيني كل يوم).

وهنا قاطعه هندي كان من جماعتنا قائلاً: لشدَّ ما يدهشني أن أسمع هذا الهراء من رجل عاقل مثلك! كيف يجوز لكتلة نار أن تهبط في الماء ولا تنطفئ؟ الشمس ليست كتلة نار أبداً بل هي إله يدعى (ديفا) وهو ما ينفك يركب عجلة يدور بها حول جبل فيدو الذهبي فتهجم عليه في بعض الأحيان الحيتان المشئومتان (راكو وكيتو) وتبتلعانه؛ وعند ذلك تصبح الأرض في ظلام. إلا أن كهنتنا لا ينفكون يصلون ويضرعون لذلك الإله حتى يطلق سراحه. لا يظن أن الشمس تضيء بلدته وحدها إلا من كان غبياً مثلك لم يبرح جزيرته قط).

فقاطعه ربان سفينة مصرية وقال له: (أنت أيضاً مخطئ، ليست الشمس إلهاً ولا هي تدور حول الهند ولا حول جبلها الذهبي فحسب) لقد طوفت كثيراً في البحر الأسود وعلى طول سواحل جزيرة العرب، ورأيت أيضاً مدغشقر وجزائر الفلبين، وفي كل هذه الأماكن تبزغ فيها الشمس، مما يدل على أن الشمس لا تضيء الهند وحدها ولكن تضيء الأرض كلها؛ ولا هي تدور حول جبل واحد وإنما تشرق في الشرق الأقصى وراء جزر اليابان، ثم تغرب بعيداً. . . بعيداً في الغرب وراء الجزيرة البريطانية. ولهذا السبب يسمي اليابانيون بلدتهم (نيبون)

ومعناه (مولد الشمس). أعرف هذا جيداً لأني رأيت كثيراً، وسمعت اكثر من جدي الذي ركب البحار كلها).

وكان يريد المصري أن يستمر في حديثه لو لم يقاطعه بحار إنكليزي كان في سفينتنا قائلاً:

(لا يعرف أحد عن حركات الشمس قدر ما يعرفه الناس في إنكلترا. ليس للشمس مشرق ولا مغرب، وإنما هي تدور دائماً حول الأرض. إن هذا الذي أقوله لا شك فيه. ألم ننته الآن من طوافنا حول العالم ومع ذلك لم نصطدم بالشمس؟ أينما حللنا وجدنا الشمس تطلع صباحاً وتغيب مساء كشأنها هنا!.

وأخذ الإنكليزي عصاً وراح يرسم دوائر على الرمل ليرينا حركات الشمس وكيف تدور حول الأرض، إلا أنه لم يستطع شرحها بوضوح فقال مشيراً إلى ربان السفينة: اترك شرحها إلى هذا الرجل فهو أعلم بذلك مني)

وكان ربان الفينة رجلا ذكياً يصغي إلى الحديث بسكون دون أن ينبس بكلمة، فلما طلب منه الكلام اتجهت الأنظار إليه وبدأ يقول:

(أنتم تحاولون التضليل وما تضلون سوى أنفسكم. إن الشمس لا تدور حول الأرض، بل الأرض هي التي تدور حول الشمس مرة في كل سنة، وتدور حول نفسها مرة في كل أربع وعشرين ساعة. فيتضح من هذا أن لا فرق بين اليابان وجزر الفلبين وسومطرا وأفريقيا وأمريكا وأوربا وغيرها، فإن نصيب الجميع من أشعة الشمس واحد. فالشمس إذاً لا ترسل نورها على جبل واحد ولا جزيرة واحدة ولا بحر واحد حتى ولا على أرض واحدة، وإنما تستضيء بنورها جميع الكواكب أيضاً. فلو نظرتم في السموات عوضاً عن نظركم إلى الأرض لأدركتم كل هذا ولما زعمتم بعد ذلك بأن الشمس تضيء لكم أو لمدينتكم فقط).

هكذا تكلم الربّان الحكيم، وإذا تكلم فإنما يتكلم عن خبرة واسعة من كثرة ما ساح في البحارومن طول ما حدّق في السموات.

هذا الذي قيل في الشمس يقال أيضاً في الدين. إن السبب الذي يحول دون اتفاق الناس في مسألة الدين إنما هو التفاخروما يسببه من شحناء. كل رجل يريد إلهاً له، أو على الأقل إلهاً خاصاً لأمته، وكل أمة تريد أن تحصرفي معبدها الله الذي لا يسعه العالم.

وما هذه المعابد بالنسبة إلى العالم الذي خلقه الله ليجعل فيه الناس أمة واحدة وديانة واحدة ألا وهي الإنسانية؟

لقد شيدت المعابد الإنسانية على غرار هذا المعبد الذي شيده الله للناس، كل معبد له أحواضه وأقبيته وصوره ونحوته ونقوشه وكتبه ومذابحه ومحاريبه وكهنته. ولكن أيوجد معبد له حوض كحوض الأقيانوس أو قبو كقبو السموات؟ وأين تلك المصابيح الباهتة التي تضيء المعابد الإنسانية من الشمس والقمر والنجوم؟ أو تلك الصور الجامدة من رجال أحياء تغمرقلوبهم بالحب؟

وهل يوجد وصف في أي سفر من الأسفار عن كمال الله وحسنه أروع وأبسط من هذه النعم التي أسبغها الله على عباده لخيرهم وسعادتهم؟ وهل من تضحيات أسمى وأرفع من هذه التي يقدمها الرجال والنساء على مذبح الحب؟ ثم ما هذه المذابح المنصوبة في الكنائس إذ قيست بقلب رجل كريم يطفح حباً وحناناً وقد رضى الله به مذبحاً لتقديم القرابين له.

كلما سما الإنسان في فهم الله ازداد به علماً، وكلما ازداد به علماً اقترب منه، وذلك باحتذائه إياه في إحسانه وعطفه وحبه.

ليكف إذن ذلك الذي يرى نور الشمس يغمر العالم عن

احتقار ذلك الرجل الخرافي الذي يرى في معبوده قبساً من هذا النور. ليكف حتى عن ازدراء الكافر، لأنه أعمى ولا يرى الشمس البتة).

هكذا تكلم الصيني تابع كونفوشيوس، فصمت كل من كان في المقهى ولم يعد أحد يدعي أن ديانته هي الفضلى.

obeikandl.com

obeikandl.com

إيزرهادن

انقض إيزرهادن ملك الأشوريين أنقاض الوحش على دولة الملك ليلليَّ، فعذب فيها الناس، وخرب منها المدن، وأطلق في أطلالها ألسنة النار تأكل ما تبقى من معالمها وأخذ كل من فيها أسرى، وهنالك ذّبحهم وألقى ملكهم في غيابة السجن.

وبينما هو مستلق ذات ليلة في فراشه يفكر في أفظع الوسائل لقتل الملك الأسير إذ سمع حفيفاً خفيفاً يقترب منه فرفع عينيه فرأى أمامه شبح رجل طويل القامة أبيض اللحية في عينيه وداعة وسلام يقترب منه ويهمس في مسمعه هل حقا تريد أن تقتل ليلليَّ؟

فقال الملك: هذا ما أريد فخبرني بربك كيف السبيل؟ فقال الكهل: ولكنه أنت!!

قال - أنا من؟

- ليلليَّ

- ويحك هل جننت؟ إن ليللي هو ليللي وأما أنا فهو أنا!

- وهمت يا صاحبي فأنت وليللي كل لا يتجزأ.

- ولكن لا أفهم: فها أنذا مستلق على فراش وثير، وحولي الجواري والغلمان، وغداً سوف أجلس مع صحابي على سماط نأكل حوله الآكال ونشرب الأشربة ونتسارُّونتسامركما فعلنا اليوم وكما فعلنا بالأمس. بينما ليللي هنالك ملقى في سجنه كطائرفي قفص، وغداً يخوزق، ويعلق من لسانه فيظل يتخبط حتى يأخذ روحه الشيطان.

قال الشيخ: ولكنك لن تسلبه الحياة!!

- إذن ما رأيك يا شيخي العزيز في الأربع عشر ألفا من الجنود الذين اقتلعت من حلوقهم الأرواح وصنعت بأجسادهم رابية كجبل الهند. فأين هم الآن؟ لقد قتلتهم وليس ثمة لهم وجود وهاأنذا من أحادثك وتحدثني بترهاتك يا شيخ المخرفين.

- ومن يدريك أن لا وجود لهم؟

- يدريني أنني لا أراهم الآن وقد أكلتهم بالأمس جوارح الطير أمام عيني.

- وفي هذا كذلك أنت واهم فما فعلت إلا أن قتلت نفسك.

- بربك إلا تدعني أفهم هذا الذي تهذي به؟

- أو تريد أن تفهم؟

- نعم.

- إذا تعال..

وأشار الشيخ إلى طست فيه ماء وقال للملك اجلس فيه، فنهض الملك من سريره، وجلس في الطست. وأمسك الشيخ بقارورة تشف عن سائل، وقال للملك أحن رأسك فأحناه، فسكب عليه من ذلك السائل فانتفض ثم شعر بأنه إنسان آخر:

ورأى نفسه فجأة متكئا على سرير وثير إلى جانب امرأة كاللؤلؤة ما رآها من قبل بل عرف ساعتئذ أنها زوجته. ونهضت المرأة قائلة له أي ليللي زوجي العزيز، لقد رأيت أعمالك بالأمس متعددة متعقدة، أنهكت قواك فرحت مع النوم أكثر من كل يّوم، فضع على منكبك الرداء وهب يا مولاي إلى البهو الأعظم حيث الأمراء والحكماء ينتظرون.

فقام إيزرهادن وقد وقر في نفسه أنه ليللي، وعجب كيف لم يعرف نفسه من قبل؟! ثم تزيا وتمنطق وتهادى في جلاله الملك إلى البهو الأعظم حيث يسوس مع أعوانه شؤون الناس.

حيّا الأمراء ملكهم ليللي وقد عنت منهم الوجوه، ثم جلسوا بأمره واستهل كبير الوزراء الكلام فقال إنه من المستحيل أن تتغاضى المملكة عن تلك الإهانات الوقحة التي ما يفتأ يوجهها الملك المفتون الأحمق إيزرهادن ملك الأشوريين وإن لم يكن ثمة بد من القتال فأنها الحرب

ولكن ليللي انتفض ورفض، وقال إن الأمور تصرف بالسلام لا بالصدام. وأصدر أوامره بأن يبعث من لدنه رسلا يفاوضون الملك الأهوج إيزرهادن وزود الرسل بما يقولون ويفعلون، ثم بعث بهم على بركة الله.

وبعد أن نظر الملك ما عليه - في شؤون الملك من عمل خرج يقتنص من لفائف الغاب طرائد الوحوش، فتلك هي صبابته ولذة نفسه منذ كان في أكناف أبيه يافعا، وما كان أسعده في هذا اليوم إذ صرع بسهمه المراش عجلين من أفحل عجول الإحراج. نظر كذلك إلى هذه اللبؤة العرفاء التي جاءت نحوه تتهادى في دلال الإناث وإقبال الأسد، وعاد الملك بالقنائص طروبا، وقضى الليل مع ندمائه في قصف ورقص.

وهكذا عاش الملك مقسما بين ضرورات الحكم ومسرات القلب أياما وأسابيع في انتظار عودة الرسل الذين بعث بهم إلى الملك إيزرهادن، وعاد الرسل بعد شهر ولم تعد معهم أنوفهم ولا آذانهم، إذ أن الملك إيزرهادن قد أخذ رهينة على أن يقولوا لمليكهم ليللي إن ما حل بهم سيحدث له كذلك إن هو لم يحمل على ظهور المطايا أو ساقا من الفضة والذهب والأخشاب الثمينة ويقدمها للملك ايزرهادن ومن خلفها يذهب الملك ليللي بنفسه ويقدم للملك العظيم فروض الولاء

وجمع ليللي أمراءه فتشاوروا ودبروا وقدروا، وقرروا أن الملك قد أهين، وبالإجماع أعلنوها حربا على ملك الأشوريين، وعلى رأس جيش يتقد حمية وحماسة كان الملك ليللي يزحف

إلى عدوه وقضى سبعة أيام يكابد هو وجيشه مشقة السفر ووعثاء الطريق.

وفي اليوم الثامن تقابل الجيشان في بطن واد مكشوف. ويا أكثر ما روع الملك الباسل ليللي إذ رأى جيش غريمه ينهمر كالسيل من أعلى الجبل ويكتسح الوادي بآلاف مؤلفة فدافع ليللي ببضع مئاته دفاع الأبطال.

ولكنه سرعان ما جرح وحمل أسيراً وذهب جيشه من قتيل وأسير وسيق به وبهم إلى نينوى حيث ألقى الملك في كهف مسوج بالقضبان.

ولم يعان الملك ليللي في هذا الأسر من آلام الجوع وإيلام الجروح كما عانى من إلام الروح: فها هو ذا ملطخا بالخزي والعار لا حول له ولا قوة، يكابد عذابه وأوصا به شجاعا صابراً لا شاكيا ولا متذمراً.

اثنتا عشر يوما ينتظر الملك الموت وهو يرى في كل لحظة خلصاءه وندماءه يساقون إلى الذبح كالخراف ولكنه تجمَّل وتحمل وكتم: رأي زوجته التي يحبها كل الحب مغلولة اليدين يسوقها عبدان إلى حيث تلقى مع جواري إيزرهادن فسكن وسكت.

وأخيراً صرصرت السلاسل وفتح باب السجن، ودخل جنديان، فأنهضا الملك وكبلاه بالحديد وساقاه إلى ساحة الإعدام، وخلعوا أثواب الملك وزجروه وزجوه إلى حيث الموت، وحينئذ صاح الملك: إنه الأجل. لا أستطيع. وفقد الملك شجاعته وبكى، ووقع الملك على أقدام الجلادين يبكي ويسترحم، ولكن لا سامع ولا مجيب: وشهروا السيف وأرادوا أن يُهووا به على عنقه.

وهنا صاح الملك: هذا لا يمكن. أنه حلم، ونفض الملك رأسه فعاد كما كان: إيزرهادن.

وقال إيزرهادن: يا إلهي كم قاسيت من العذاب. وكم طال هذا الكابوس.

فأجاب الشيخ ذو اللحية: كم طال هذا الكابوس!؟ إنه لحظة يا صاحبي دونها غفوة العين. . . فهل فهمت الآن؟

فنظر الملك في رعب ولم يجب.

فقال الشيخ أرأيت أن ليللي هو أنت، وأن الجنود الذين عذبتهم وقتلتهم ليسوا أحداً غيرك؟ إنك تظن أيها الملك أن الحياة تجري في عروقك وحدك، ولكنني أريتك أنك بعمل الشر للآخرين إنما عملته لنفسك لأن الآخرين وأنت شيء واحد، فالحياة واحدة في الجميع وإنما حياتك جزء من هذه الحياة العامة وصورة منها مصغرة: وإلا فخبرني هل يمكنك أن تجعل الحياة أسوأ مما هي أو أحسن مما هي؟ هل يمكنك أن تمدها حتى تطول، أو تقبضها حتى تقصر؟. . . كلا فما في استطاعتك أن تحقق الحياة إلا في نفسك وذلك بأن تحطم الحواجز بين حياة الآخرين وحياتك، وبأن تنظر إلى الآخرين النظرة التي تنظرها إلى نفسك وتحبهم كما لو كانوا منك. بهذا تزيد نصيبك في الحياة، إنك تنظر إلى حياتك كأنها الحياة الوحيدة في الكون وتريد أن تزيدها بما تأخذ من حياة الآخرين، وأنا أقول لك إنه بنفس هذا العمل إنما تخطئ في حق نفسك لأنه مستحيل وفوق قدرتك أن تسلب الحياة التي توجد في الآخرين. وخطأ أن تظن أن حياة الذين قتلتهم قد اختفت في الواقع أبداً، فالحياة لا تعرف الزمان ولا المكان.

حياة لحظة وحياة ألف عام وحياتك أنت وحياة كل الكائنات الكثيرة والمتنوعة في الوجود، كل هذا سواء، وواحد لا يختلف. مستحيل أن تسلب الحياة أو تهبها لأحد. الحياة هي الشيء الوحيد الذي يوجد إلى الأبد؛ وكل شيء عداها نتخيل أنه موجود وهو وهم باطل.

قال الشيخ هذا واختفى.

وفي الصباح أصدر الملك إيزرهادن أمره بإطلاق سراح الملك ليللي وإلغاء كل أحكام الإعدام. وفي الثالث استدعى إليه ابنا أشور بانّي يال وتنازل له عن الملك بكل قوته وسطوته.

وأما الملك إيزرهادن فقد خرج إلى الغابات يتأمل في كل ما عرفه وطاف في المدن العساكر يبشر الناس بأن الحياة واحدة خالدة، وأن الناس إذ يسيئون للغير لأنفسهم لأن غيرهم وأنفسهم واحد خالد.

obeikandl.com

الملاك...[1]

كان الاسكاف (سيمون) يعيش مع زوجته، وأبنائه في شظف من العيش يسكنون كوخا صغيرا مغبرا، بأجر من المال يؤدونه لصاحبه الفلاح. . . وكان سيمون يكسب رزقه من عمله في جهد وجحد، وينفق كل ما تمسكه أنامله من دراهم على إطعام عائلته، وما أندر الخبز في ذلك الحين!

وكان للرجل وزوجته مدرعة من صوف يرتديها كل منهما حينا في الشتاء، حتى رثّت وبليت، وقد تقّضى عام وهو عازم على شراء مدرعة أخرى، فما أن أقبل الشتاء، حتى أمكنه أن يقتصد بعضا من المال: ثلاث (روبلات) وخمس (روبلات) وعشرين (كوبك) يدين بها بعضا من زبائنه!

وتهيأ ذات يوم ليؤم القرية، فارتدى (مطرف) زوجته على قميصه، ثم لبس ثيابه الأخرى فوق ذلك، ووضع الثلاث (روبلات) في جيبه، واقتطع لنفسه عصا يتوكأ عليها، واتخذ سبيله إلى القرية بعد أن أفطر...

وفي طريقه راح يحدث نفسه: (سوف أحصل على الخمس (روبلات) وأضيفها إلى الثلاث (روبلات) فيصير ما معي كافيا لشراء مقدار من الصوف لمدرعة الشتاء!)

1- هذه القصة من أروع الأمثلة على ما كان يفيض به تولستوي من الحس العميق والوصف الدقيق لحياة عائلة من تلك الطبقة التي كرس حياته لرفعتها ونصرتها. .

ولما بلغ القرية بعد لأي طرق باب أحد الفلاحين فلم يجده بالدار، ووعدته زوجة الفلاح أن النقود سوف تصله في الأسبوع القادم! وطرق (سيمون) باب فلاح آخر، فأقسم له هذا أن يديه صفر من المال، وسيدفع له كل ما معه (عشرين كوبك) قيمة إصلاح حذاء قام سيمون برتقه!

فحاول (سيمون) أن يشتري (صوف المدرعة) بما معه، وبقرض يؤديه بعد حين، فرفض البائع قائلا في صوت ساخر: (إيتني بالمال، وسوف يكون لك ما توده من الصوف، فإنا نعلم كيف يحصل المرء على دينه!)

فأحس سيمون بالخور يسري في جسده، والقنوط يتسرب إلى فؤاده، فقام إلى حانة حيث نهل كأسا من الخمر بعشرين (كوبك)، وقفل راجعا إلى داره!

كان للخمر أثرها في سيمون، فسرى الدفء في عروقه، وزادت من قوته ونشاطه. فراح يفكر: (إني أحس بجوانحي تختلج دفئا وحرارة، مع أني لست مرتديا مدرعة من الصوف، لقد تناولت قطرة من الخمر فكان لها أثر النار تسري حرارتها في عروقي، فلست بحاجة

لمدرعة من الصوف أقي بها زمهرير الشتاء!!)

ليت زوجتي ترتشف قليلا من الخمر. فتحس ما أحس!! صه... ويلك... أتود أيها الرجل أن تقضي عليك زوجتك إن خبرتها أنك تناولت بعضا من الخمر... إنها سوف تحطم الآنية على رأسك الفاضل..! يا له من سائل عجيب يدفع النشوة إلى الروح والحرارة إلى الجسم!!. لست أبالي شيئا... ولكن زوجتي سوف تكتئب ويؤلمها أني عدت دون صوف المدرعة!. ليس علي من جناح!!... فقد طلبت حقي فأنكره واحد. وأعطاني الآخر عشرين (كوب)... هه... وماذا أنا فاعل بها.؟! لست أدري غير أن أشرب بها... إن الواحد من هؤلاء يملك الأرض والدور

والحيوان. . . ثم يبخل علي بحقي حقي الذي أعمل سحابة يومي وجنحا من ليلي كي أظفر به. . . فإذا ما انتهيت أنكروه علي يا للعار. إن الواحد منهم لينعم بالدقيق والطعام أما أنا فأنفق ثلاث (روبلات) كل أسبوع للخبزوحده. . . فإذا ما عدت إلى الداروجدت الخبزقد أكل فأبيت على الطوى!. وهل أملك غيرذلك؟! ومن أين آتي بالنقود؟! أمن (هؤلاء) الناس الذين لا يقيمون عن الطعام إلا وقد أصيبوا باللظة.!!)

كانت تلك الأفكار والخواطر تضطرب بين جوانحه. حين أدرك - في سيره - الكنيسة في منعطف الطريق. فرأى جسدا كالثلج في نصاعته!. فراح ينعم النظردون أن يتحققه أيكون ثورا!. لا ليس شبيها بالثور.! إن له رأسا يشبه رأس لإنسان! بيد أنه ناصع البياض!. . .)

واقترب منه حتى أمكنه أن يجتلي الأمر!. وكم كانت دهشته حين أدرك أنه إنسان عار. . . يجلس إزاء الكنيسة في سكون يدفع الرهبة إلى القلب. . . فطارفؤاده هلعا، وتلبسه الخوف فزعا: (لا بد أن أحدا قد قتله. . وخلفه هنا. . سوف أمسك عليّ فضولي أو أصاب بأذى. . .)

وأنطلق في سبيله ولكن التفت إلى ما وراءه فرأى الرجل الجالس ينظر إليه. . . فراع ذلك سيمون وزاد من جزعه. (أأعود إليه أم أنطلق؟! إن أنا عدت إليه فسوف يحدث مالا يرضيني. بل يجلب الضرإلى نفسي فما وجدت ثمت إلا لسوء. . . ولعله يثب علي ويخنقني. وحينئذ لا تنفعك رحمتك ولا تشفع لك شفقتك. . . وماذا أنا فاعل بإنسان عار؟!

لست بمستطيع أن أخلع عليه ما لا أملكه. دعه فللسماء شأن معه!) وأسرع سيمون في خطاه لا يلوي على شيء. بيد أن ضميره أخذ يؤنبه. فتوقفت خطاه. وأخذ يهس في حيرة ويهمهم في وجل: (ماذا أنت فاعل يا سيمون؟! هب أن الرجل

يلفظ آخر نفسه!. ألا تتقي الله في فرارك منه ورغبتك عن عونه!! أأنت في وفر من المال حتى تخشى أن تسرق؟! يا للعار يا سيمون.!) فانقلب آيبا إلى الرجل ونفسه مضطربة وقلبه يخفق...

دنا سيمون من الرجل الغريب، وراح يجيل الطرف فيه. . فرآه شابا على جمال وحسن! وليس على جسده أثر لجرح أو شج وقد جلس ثم معتمدا ظهره إلى جدار الكنيسة لا يرفع طرفه إلى سيمون من الوهن والضعف. فلما أحس بسيمون رفع رأسه إليه، وألقى إليه بنظرة. كانت كافية لأن تستدر كل ما يختلج بين جوانح سيمون من عطف ورفق وحب. فخلع حذاءه. وألقى عن نفسه رداءه. وقال في صوت خفيض فيه حنان وفيه رأفة: (ليس ثمة مجال للحديث!!. هيا ارتد هذا الثوب.) وأمسك سيمون بمنكبي الرجل، وأعانه على النهوض. ..

فلما نظر إليه - حينما انتصبت قامته - ألفاه. . . مديد العود... جميل الوجه... فألقى على كتفيه رداءه وأعانه على لبسه وهم (سيمون) يخلع قبعته ليضعها على رأس الغريب. فأحس برأسه يقشعر من البرد فقال في نفسه: (أني أصلع!. أما هو فله غدائر معقوصة فلا خوف عليه!. بل يحسن أن ألبسه حذائي...) فأقر قبعته على (صلعته) وأجلس الرجل. وجعل حذائه في قدميه... وهو يقول في جرس طيب عطوف (هيا. أيها الصديق. استشعر الدفاء ودع باقي الأمور تجري وفق مرادها أفي قدرتك أن تسير؟!)

فنهض الرجل ونظر في امتنان إلى سيمون دون أن ينبس ببنت شفه فقال سيمون: (لماذا لا تتكلم؟! أن البرد لقارص فلا بد من العودة إلى المنزل توكأ على عصاي وإلا أحسست بوهن وخوار. فاعتمد على ساعدي...)

وخطا الرجل في تعب وجهد. وفي خلال السير رفع سيمون صوته قائلا:

(من أين أنت؟!.)

- لست من هذه البقاع!)

(كذلك حدست. فأني أعرف القوم هنا.! ولكن كيف قدر لك أن تصير هكذا جوار الكنيسة!؟)

(لست أدري!)

- أساء أحد معاملتك؟!

- لم يتعرض لي أحد بسوء؟ لقد عاقبني الله. . .

دون ريب. . . هذا هو حكم الله. سوف تجد عيشا ومأوى أينما ذهبت! فأين تروم!)

- لست أدري!.)

فتولى سيمون الدهش. فما كان الرجل صاحب سوء أو خبث وتجلى من لهجته أنه خالص القلب. ولكنه لا يعلم عنه شيئا. (من يدري ما سوف يحدث!!) والتفت إلى صاحبه وقال: (حسنا!. تعال إلى داري على الرحب والسعة.!)

هبت الريح عاتية، فياضة بالصقيع. فسرت القشعريرة في جسد سيمون بعد أن أفاق من نشوة الخمر وذهبت عنه حرارته فأخذ يدثر نفسه برداء زوجته بعد أن خلع رداءه. . . وراح يتحدث إلى نفسه: -

(ولآن، وقد ذهبت الخمر، أعوزنا صوف المدرعة، لقد انطلقت اليوم كي أعود بالصوف، فما عدت بالصوف ولا بردائي أنا، وفوق ذلك أتيت معي برجل عار! سوف تستاء (مترونا) من ذلك!)

وحينما جالت بفكره (مترونا) زوجته أحس بالانقباض والألم يتغلغل في جوانحه، بيد أنه عندما ذكر صديقه الغريب

ونظرته إليه في امتنان وحمد رقص قلبه بهجة ومراحا. . .

نهضت (مترونا) زوجة سيمون. . . ذلك اليوم بعبء واجبها المنزلي خير نهوض وانتهت من عملها مبكرة. . . قطعت الأخشاب. . . وحملت الماء. . . وأطعمت الصغار. . . وتناولت هي وجبتها. . . وجلست ترقب أوبة زوجها. . . وراحت تسال نفسها:

(أيكفي الخبز. . . أم عليها أن تعمل بعضا منه الآن. . . لو أن (سيمون) تناول طعامه في المدينة. . . ولم يكن في حاجة للخبز في العشاء. . . فسوف يمتد أجل الخبز يوما آخر. . . لست بقادرة اليوم على أن أصنع خبزا. . . وسوف أدبر كل شيء حتى يكفينا إلى يوم الجمعة القادم. . .). . ووضعت مترونا قطعة الخبز الباقية في مكان حريز. . . وجلست ترتق ثياب زوجها. . . وفي غضون ذلك راحت تفكر كيف يشتري زوجها صوف المدرعة كي تقيهما برد الشتاء. . .

(آه. . . لو أن البائع لا يخدعه. . . أن زوجي لغرّ. . .! سهل على من يقوده. . . انه لا يخدع أحدا. . . ولكن الطفل يستطيع أن يعبث به. . . ثماني روبلات مقدار كاف لشراء أجود الأصواف وأمتنها. . .! كم كنا نرتعد بردا ونرتجف من الصقيع في الشتاء الماضي. . . وما كنت أستطيع أن أهبط النهر أو أذهب إلى مكان آخر ولكن لقد بكر سيمون في الذهاب!! وما عاد إلى الآن. . . آمل أنه لم يذهب إلى الحانة!!.

ما كادت (مترونا) تردد هذه الخواطر في ذهنها. . . حتى طرقت أذنها أصوات وأحست أن بعضهم دلف إلى الدار فقامت تجتلى الأمر. . . فأبصرت رجليه: سيمون زوجها، وشخصا آخرا. عاري الرأس ينتعل حذاء زوجها!! لم تره من قبل!.)

وحينما لاحظت أن زوجها تفوح منه رائحة الخمر. . . وليس عليه رداءه. . . ولا يمسك بيده حزمة من الصوف. . . أخذ

مرجل غضبها يفور. . .

وأفسحت لهما حتى دلفا أمامها، ثم تبعتهما. . . ووقع بصرها على ذلك الرجل الغريب وقد لبس رداء زوجها. . . فلما دخلا الغرفة وقف الرجل الغريب لا يتحرك ولا يرفع بصره إليها. . . فقالت في نفسها (لعل السكر أخرسه وذهب بعقله. . .)

وعبست بوجهها وقطبت جبينها. . . ووقفت جوار (التنور) ترقب ما سوف يعملان. . .!

وخلع (سيمون) قبعته. . . وجلس على أحد المقاعد. . . وكأن الحال يجري على ما يرام.

- (هيا مترونا!! أن كان العشاء معدا؟! فأتبنا به.!) فزمجرت (مترونا) كاللبؤة الغاضبة. . . ولم تتحرك من مكانها جوار التنور - فرأى سيمون بوادر الشر تلوح في وجه زوجته. . . فأراد أن يهدئ من روعها ويظهر أنه لم ير شيئا. . . وقدم لصاحبه كرسيا وقال له في مرح (اجلس ودعنا نصيب شيئا من الطعام. . .! هيا (مترونا) أما أعددت لنا شيئا؟!)

كانت نفس مترونا تلتهب غضبا وتغلي حنقا فانفجرت قائلة:

- (بلى. . . لقد أعددت الطعام. . . ولكن ليس لكما. . .! يخيل لي أنك أنفقت نقودك في الشراب. . . لقد ذهبت كي تحضر صوف المدرعة. . . فما عدت إلا ومعك شريد عار عربيد. . . ليس لدي طعام للسكارى. . .!)

- (كفى مترونا. . . أمسكي عليك لسانك. . .! يحسن بك أن تسألي أي إنسان هذا؟)

- بل يحسن بك أن تخبرني ماذا فعلت بالنقود؟!)

فأخرج (سيمون) الثلاث (روبلات) من جيبه وقال: (ها هي ذي النقود. . لم يؤد (تريفنوف) ما عليه. .! ووعدت زوجته بأنه سوف يدفع. . .) فلم يهدئ هذا من غضب مترونا. . . فهو

لم يحضر الصوف. . . بل أنه ألبس وأحدا عاريا ثوبه وأتى به إلى بيته. . . فاختطفت النقود من يده لتضعها في مكان أمين وقالت لزوجها. . . (ليس عندي طعام. . . وما بمقدورنا أن نطعم كل سكير عار في العالم. . .!)

- قلت كفى مترونا خير لك أن تسمعي أي إنسان هذا -!)

- (أمن الحكمة أن أنصت إلى سكير؟! لقد كنت اعرض عن الزواج بك لهذا. .!)

حاول سيمون أن يخبر زوجته أنه لم يشرب إلا بالعشرين (كوبك). . . وحاول أن يبصّرها بالحالة التي وجد عليها صاحبه الغريب. . . بيد أن مترونا كانت تنطق بسرعة هائلة. . . وتذكره بأشياء مضت منذ عشرين عاما. . . وراحت تتحدث وتتحدث، وأخيرا أمسكت بسيمون وراحت تصيح:

(أعطني ثوبي. . . إنه الوحيد الذي أملكه. . .! وقد أعرته لك كي تحضر صوف المدرعة. . . ناولنيه أيها الكلب الأجرب. . . وليعبث بك الشيطان!!.)

فأخذ سيمون يخلعه. . . ثم ناوله إياها. . . فألقته على رأسها عمت بالخروج إلا أنها توقفت. . .! وقد جال في نفسها أن تعرف سر ذلك الرجل الغريب فقالت لسيمون:

لو أنه رجل مهذب لما أعجزه أن يستر نفسه بثوب يشتريه! أيمكنك أن تخبرني أين عثرت (عليه)؟!)

- هذا ما كنت على وشك أن أخبرك إياه. . . حينما أدركت الكنيسة وأنا في طريق العودة - أبصرته جالسا عاريا يكاد أن يتجمد من البرد والصقيع، فقد بعثني الله إليه قبل أن يقضى عليه الجوع والعرى، فماذا كان علي أن أفعله سوى أن أخلع ثوبي وألبسه إياه وآتي به معي؟ فما كان له من مأوى!! ما الذي يدرينا كم كان يلاقي من العذاب الشديد؟ لا تغضبي يا مترونا، أن هذا ذنب غير مغتفر، واذكري أننا سوف نموت جميعا يوما

ما!)

وارتفعت ألفاظ الغضب إلى شفتي (مترونا)، ولكنها ما لبثت أن ماتت قبل أن تلفظها، فقد نظرت إلى الرجل الغريب وهو جالس في سكون ووداعة على مقعده، يداه معقودتان على

فخذيه، ورأسه ساقط على صدره، وعيناه مغمضتان، وجبينه مقطب، كان الألم ينهش فؤاده فينعكس على صفحة وجهه!

فصمتت (مترونا) على مضض... وقالت سيمون في صوت شاع فيه الرجاء والأمل: ألا تحبين الله يا مترونا؟!.)

فما سمعت (مترونا) هذه الكلمات، وألقت طرفها ثانية إلى (الصاحب الغريب) حتى فاض قلبها إيمانا... وراحت الرحمة تدب في نفسها... وأخذ الحنان والعطف يهز فؤادها...!

فذهبت إلى (التنور) وأتت بالطعام... ووضعت قدحا على المائدة وصبت فيه بعض الشراب الساخن ثم أحضرت قطعة الخبز من مخبئها ومعها سكينان وملعقتان... وقالت في صوت يفيض عطفا. تفضل فتناول بعض الطعام...!

وأدنى سيمون المائدة من صاحبه. وفتت الخبز ووضعه في المرق وراحا يأكلان.. وجلست مترونا في جانب من المائدة! ترقب الضيف في نظرات فاحصة. فزاد عطفها عليه ورأفتها به.

وحينئذ أشرق وجه (الغريب) وأضاء. فكأنه البدر يرفل في هالة بالسماء.. ورفع عينيه النجلاوين إلى (مترونا) ونظر إليها نظرة وديعة. وافترثغره عن ابتسامة حلوة عذبة...

ولم يكادا يفرغان من الطعام، ويقومان عن المائدة... حتى أقبلت (مترونا) على (الضيف الغريب)... تسائله:

- (من أي البلاد أنت؟!) فأجابها في صوت شاعت فيه

الوداعة (لست من هذه البقاع!...)

فقالت دهشت (ولكن. ما الذي رمى بك إلى الطريق؟)

- (لست أدري.!.)

- (أتعرض أحد لك بسوء؟!.)

- (كلا!... لقد عاقبني الله تعالى!...)

- (أما كنت ملقى على قارعة الطريق؟!...)

- (بلى عرياناً ومثلجاً، وقد لمحني زوجك الكريم (سيمون) فأدركته الرحمة فخلع ما عليه، وألبسني إياه، وأحضرني هنا. .. فأطعمتني من جوع، وآويتني من برد... وأشفقت عليَ من التشريد والموت... فجزاك الله خيراً).

فنهضت (مترونا) وأحضرت له بعضاً من ثياب زوجها القديمة... وأعدت له مناماً على كثب من التنور يقضي فيه ليلته

باتت (مترونا) في مضجعها تتقلب فلم يزر جفنيها الكرى وما فتئت ذكرى (الغريب) تراود مخيلتها...

بدا لها كيف أتى على نصيبهم الأخير من الخبز... فلم يدع لهم شيئا إلى العند... فأحست بالحزن يساور نفسها... والألم يتغلغل في قلبها... بيد أن تلك البسمة التي

رفعها إليها (الضيف الغريب) جالت في صفحة فكرها وجلبت السكينة إلى نفسها وقالت تحدث زوجها في خفوت، وقد كادت أن تأخذه سنة من النوم: -

(سيمون!...) فأجابها في توجس وضيق: (ماذا؟!)

- (لقد أتيتما على آخر ما عندنا من الخبز... ولست أدري ما الذي نفعله غداً!! ليتني أستعير بعضاً من جارتنا (مارثا!...)

- (إذا امتد بنا الأجل إلى الغد... فسوف نرزق من حيث لا ندري!...)

فلبثت المرأة برهة لا تنبس... ثم قالت في رقة (يخيل إلي

أنه رجل طيب كريم، ولكن ما الذي يحمله على الصمت فلا يكشف لنا جلية أمره؟!.)

- (أحسب أن لديه علة تمنعه!.)

- (سيمون!.)

- (نعم!.)

- (ما بالنا نعطي! وليس ثمت من يتفضل علينا بعطاء)

فحارسيمون جواباً... ثم لم يلبث أن قال لها: - (دعينا من هذا الحديث!...) وانقلب على جانبه... وراح يغري بعينيه النوم بعد أن جفاه.!

وفي الغداة... أفاق (سيمون) من نومه، وكانت الأطفال تعبث في البيت صياحاً ولهواً، وانطلقت زوجته لتسأل جارتها بعضاً من الخبز... أما الغريب فكان يجلس على مقعده - في ثياب سيمون الخلقة - يرمي طرفه إلى السماء - وفي عينيه توسل ورجاء، وقد عاد إلى وجهه بهاؤه وضياؤه عن البارحة...

فقال (سيمون) في طلاقة ومرح: (هه!... أيها الصديق.. إن السغب يدعو الإنسان إلى السعي وراء القوت، والعرى يضطره إلى طلب الملبس... فعليه أن يعمل ويكد... فما الذي تعرفه من المهن؟!.)

- (لست أدري شيئاً!.)

فقال سيمون في صوت ملئ بالدهش.

- (إن كان للإنسان رغبة في التعلم فسيتعلم؟!)

- (وإن لفي نفسي رغبة إلى ذلك.!)

- (ماذا تدعى؟!...)

- (ميشيل...)

- (حسناً يا ميشيل... إن لم تكن في نفسك ترغبة إلى أن تحدثنا عن نفسك، فهذا من شئونك... غير أنه يجب أن تتكسب رزقك، فإن عملت بما سأشير عليك به.! فسوف تجد

عندي طعاماً طيباً، ومأوى حسناً...)

- (جزيت خيراً... وإني لمطيع لما تقول!...)

- (إن ذلك غاية في البساطة... فانظر إلي.) ثم أمسك (سيمون) بخيط، ولفه حول إبهامه وراح يجدله في براعة... فراقبه (ميشيل) ثم أخذ قطعة من الخيط وثناها على إبهامه وانفك يجدلها كما فعل سيمون وفي براعته وإجادته، وعلمه سيمون كيف يشمع الخيط ويقطع الجلد ثم يخيطه... فبرع (ميشيل) في كل ذلك... حتى أصبح ماهر البنان كأنه مارس تلك الحرفة طيلة حياته...

كان لا يبرح يعمل ويعمل دون توقف، ولا يطعم غير القليل، حتى إذا ما انتهى من عمله، جلس صامتاً يحدق في سماء الغرفة وفي عينيه ذلك الرجاء وذلك التوسل... ولم يكن يخرج إلى الطريق، بل يظل حبيس الدار، رهين العمل، لا ينطق إلا بكلمات قلائل يضطر إليها... وما ضحك يوماً، وما ارتفع لسانه بفكاهة... ولم ترتسم على وجهه ابتسامة أبداً، إلا تلك التي أضاءت على جبينه يوم أن قدمت إليه (مترونا) العشاء...!

وتتابعت الأيام وتعاقبت الشهور... وميشيل يعيش ويعمل جهده مع (سيمون)... وجرى اسمه على كل لسان، وطبقت شهرته في كل مكان... حتى طفق الناس يأتونه من كل صوب وفج يعاملونه... حتى ازدهر حاله. وزال عنه بؤس الحياة وعسرها.

كان (سيمون) وميشيل يعملان ذات يوم حينما جلجلت بباب دارهم الأجراس فأسرع كل منهما إلى النافذة، يستجلي الأمر... فأبصر بعربة (زلاقة على الثلج) يجرها ثلاثة من الجياد المطهمة الصافنة... تقف بباب الدار، وخف تابع إلى بابها ففتحه... فظهر منه سيد جليل مهيب - عليه جبة

من الفرو الثمين - ووقف بباب الكوخ، فسارعت (مترونا) إليه تفتحه على مصراعيه، وترحب بمقدم الضيف الجليل فطأطأ الرجل رأسه عند ولوجه الباب... فلما انتصبت قامته الممشوقة كاد أن يمس رأسه سقف الغرفة فنهض سيمون

وانحنى إجلالاً للضيف وقد سرى إلى نفسه الدهش... فما رأى مثل هذا الرجل في عظمته ورفاهيته فقد كان سيمون هزيلا نحيفا، وميشيل صدعا رفيعاً... كما أن (مترونا) كانت ضاوية الجسد جافة العود...

أما هذا السيد، فيخيل لمن يراه أنه من عالم آخر وجنات مكتظة مليئة... ووجه مطهم شاعت فيه الحمرة الوردية، وجسد زهم كالفيل في هيئته وبدانته، وعنق أقمد كعنق الثور وما أن جلس على المقعد حتى قال (من منكم صاحب العمل؟!) فدنا منه سيمون وقال في صوت أصحل من الرهبة (أنا يا صاحب السعادة!!)

فصاح السيد بتابعه (هيا... أحضر الجلد... يا (فدكا) فلما أحضره، ووضعه على المائدة... قال السيد مشيرإليه: - (أنظر أيها (الأسكاف) أترى هذا الجلد؟.)

- (أجل يا صاحب السعادة... إنه أثمن جلد رأيته في حياتي!.)

- (أبمقدورك أن تصنع لي حذاء منه؟!)

- (أجل يا صاحب السعادة!.

- (أتستطيع!؟ حسناً... فلا يغب عن بالك لمن سوف تصنع هذا الجلد الثمين... أستمع... ينبغي أن تجعل لي منه حذاء أحتذيه عاماً كاملا... لا يبلى ولا يخلق. أفهمت إن لم يكن بمقدورك هذا، فصارحني... فإني أود حذاء أحتذيه عاما بأكمله... وإني لأحذرك الآن وإلا فسوف يكون مستقرك السجن وإذا لم يبل في مدى عام... فسوف أمنحك عشر

روبلات نظير ذلك...)

فارتعدت فرائص (سيمون) وعجز عن الكلام... والتفت إلى (ميشيل) ووكزه قائلاً في همس وحسيس (أنأخذ هذا العمل على عاتقنا؟!) فأومأ (ميشيل) برأسه موافقاً.. فانفرجت أسارير (سيمون) وسرى عنه همه وجزعه... وراح يقيس قدم السيد... يتعرف عسيها ويقدر أخمصها... ويسجل ذلك على وريقة تعنيه على صنع الحذاء... فلما انتهى من ذلك قال له السيد وهو يجول طرفه في أرجاء الكوخ.

- (لا تجعلها تضيق بقدمي!).. فلما وقع طرفه على (ميشيل) قال في تساؤل:

- (من هذا؟!)

- (إنه عامل عندي... وسوف يتشرف بخياطة حذاءك)

فتحدث السيد الجليل إلى ميشيل قائلا (أنت يا ذا... لا يغيب عن بالك أني أود حذاء مريحاً... يمكث عندي سنة... هه... سنة بأكملها!.)

نظر (سيمون) إلى (ميشيل)... وكان هذا يحدق في ركن الغرفة فوق السيد... وقد شرد خياله عما هم فيه...

. وكان يحدق... ويحدق، وعلى غرة ارتسمت على ثغره تلك الابتسامة العذبة، وأشرق وجهه وأضاء... فزمجر السيد قائلا:

- (فيم تحملق أيها الأبله؟! خير لك أن تنظر إلى ما يدر عليك رزقك!.)

فقال سيمون (سيعد لك الحذاء يا صاحب السعادة... في الحال...) فنهض السيد وهم بالخروج والغضب يحمر في عينيه، واستقر في عربته فانطلقت تجلجل أجراسها... فلما اختفت في منعطف الطريق... قال سيمون - وما زال الدهش يسيطر على نفسه - (هذا مثال لإنسان جبار... لا يقتله المرؤ

ولو بمطرقة. . . وأحسب الموت يتخوف من جبروته. . . فلا يمس له جسداً!.) ثم حدث ميشيل قائلاً:

(حسناً لقد أخذنا على عاتقنا أن نصنع حذاء له. . . ولكن ينبغي ألا يكون ذلك سبباً في متاعب جديدة. . إن الجلد لثمين وإن صاحبه لجاد في طبعه. . . فيجب ألا نخطئ معه هيا. . . يا ميشيل، إن عينيك أدق من عيني، ويديك أبرع من يدي، فهاك الجلد، فقطعه حسب المقياس. . . وسوف أخيطه أنا!.)

فبسط (ميشيل الجلد على المقطع ثم طواه طية واحدة. . . وراح يقطعه بالأزميل. . .

كانت (مترونا) ترقبه في عجب ودهش. . . فقد طالما كيف تحذي النعال وأدركت أن (ميشيل) لا يقطع الجلد على طريقة الأحذية. . . بل لشئ آخر لا تعرفه هي، فقالت في نفسها (لعلي لا أعرف شيئاً عن صناعة الأحذية للسادة والأشراف!. وأحسب أن ميشيل يعرف المزيد عنها. . . سوف لا أتطفل عليه!.)

فلما فرغ ميشيل من القطع. . . أمسك بخيط واحد وراح يخيط الجلد - كأنه من الخفاف - لا بخيطين كما تخيط الأحذية فعاد الدهش إلى (مترونا) من جديد. . . غير أنها أمسكت عن تدخلها. . .

ومكث ميشيل يعمل حتى وافت الظهيرة. . . وقام سيمون يلقي نظره إلى ما أتمه ميشيل. .

فلم يلبث أن راعه ذلك وقال في أحيح وعجب: (آه!. كيف تفعل هذا يا ميشيل؟! لقد لبثت معي سنة بأكملها - لم تأت أثناءها بخطأ قط فكيف تقع في هذه الغلطة التي ستوردنا مورد الهلاك!. لقد قال إلينا السيد أنه يود حذاءاً. وها أنت قد جعلت له من جلده الثمين خفاً. . . سوف يثير حنقه علينا. . . وما في قدرتنا أن نأتي بجلد مثله. . . لقد حطمت حياتي يا ميشيل!.)

فما وفيما هو يعلك ألفاظاً من التوبيخ والعتاب. . . حتى سمعوا طرقاً على الباب وأبصروا من النافذة رجلاً يترجل عن جواده ويربطه في حلقة الباب. . . ففتحت له (مترونا). . وكان ذلك الرجل هو التابع الذي صحب (السيد الجليل) في الصباح. . . فقال لهم: (لقد بعثت بي سيدتي في أمر الحذاء!.) فقال سيمون في جذع:

- (ماذا عن الحذاء؟!)

(إن سيدي ليس في حاجة إليه!. فقد مات.!)

- (هه!. أحقاً هذا؟!)

- أجل. . . لقد دهمه الموت وهو في مركبته!. فلما بلغنا المنزل. . . جاء الخدم يعاونونه. . . فقد حرجت جثته على الأرض كالكيس الممتلئ. . . وقد بعثت بي سيدتي لأقول لكم إن السيد الذي أتاكم هذا الصباح ليس بحاجة إلى الحذاء. . . بل ينبغي أن تعجلوا بعمل خف لجثته. . . كي أحمله إليها الآن.)

فقام ميشيل. . . وضم بقايا الجلد إلى الخف بعد أن مسحه بمئزرته وسلمه إلى الخادم الذي انطلق به قائلا: (وداعاً أيها السادة!. . .)

كرت السنون. . . وها هو ذا ميشيل يعيش عامه السادس مع سيمون وعائلته لم يتحول عما درج عليه. . . ولم يتغير شئ من طبعه. . . لا يخرج أبداً من الدار. . . ولا يتحدث إلا بمقدار ولم يرتسم الابتسامة على شفتيه إلا مرتين لا تثلثهما أخرى. . .

واحدة حينما تفضلت عليه (مترونا) بالطعام. . . والثانية حينما كان يحدق في ركن من الغرفة فوق (السيد الجليل) وكان سيمون على وفاق مع عامله. ولم يسأله يوماً من أين أتى بل كان في خشية من أن يرحل ميشيل عنه. . .

وبينما هم جميعاً في الدارذات يوم. . . وكانت (مترونا) تضع إناء على النار، والصغار

يمرحون في لهوٍ وعبث، وسيمون جالس يخيط حذاء في يده... أما ميشيل مستغرقاً في عمله على كثب من النافذة...

ووضع أحد الأطفال يده على كتف ميشيل. ونظر من النافذة وصاح قائلاً:

(أنظر... يا عم ميشيل، هناك سيدة معها بنتان صغيرتان يظهر أنها تريد دارنا إن واحدة من البنات تعرج في سيرها!) فألقى ميشيل بما معه وسارع ينظر من النافذة إلى الطريق... فتعجب سيمون، فما رأى (ميشيل) ينظر يوماً إلى الطريق في هذه اللهفة... فدعا ذلك سيمون إلى أن ينظر هو أيضاً كي يستبين ذلك الشيء الذي أثار ميشيل. فرأى سيدة حسنة الهندام تتجه حقاً إليهم وتقود طفلتين عليهما أردية من الصوف وشمائل من الفرو... يعجز المرء عن أن يميز إحداهما عن الأخرى إلا تلك التي يعتري ساقها اليسرى شئ من العرج.

وولجت السيدة بطفلتيها الغرفة... وقالت في صوت رقيق

- (سعدتم صباحاً... أيها القوم الطيبون؟!)

فقال (سيمون):

- (سعدتي صباحاً... سيدتي الفاضلة... ماذا في مقدورنا أن نعمله لك؟!)

فجلست السيدة على مقعد... وقد التصقت بها الطفلتان في خوف ممن في الكوخ.

- (أود... حذاءين من الجلد لهاتين الطفلتين، للربيع!...)

- (إننا لم نصنع من قبل مثل هذه الأحذية الصغيرة... غير أننا قادرون على ذلك... إن مساعدي (ميشيل) أستاذ صناع في هذا!.)

وألقى سيمون بنظره إلى ميشيل... ليرى أثر الإطراء والثناء عليه... فوجد هذا جالساً يحدق في الطفلتين الصغيرتين فانتاب سيمون العجب وتولاه الدهش... حقاً كانت الطفلتان

جميلتين لهما وجنتان وردية وشعر معقوص وعيون نجل. . . ترتدي كلتاهما ثياباً فاخرة من الصوف والفراء. . . بيد أن سيمون لم يفطن إلى سر تحديق ميشيل إليهما كأنه يعرفهما من قبل!

كان في حيرة من أمره. . . فانطلق يحدث السيدة ويقدر الثمن معها. . وبعد مساومة وإقرار. . . هم أن يأخذ مقياسهما فقالت السيدة وهي ترفع قدماً للبنت العرجاء (إن هذه القدم عرجاء فاعمل لها حذاء على حدة. . . أما القدم الأخرى وقدمي الطفلة الثانية. . . فهي صحيحة متشابهة وحجمها واحد. . . إنهما توأمتان. . .)

فسجل سيمون ما قاسه على وريقة صفراء. . . وقال يحدث السيدة: -

- (ما الذي حدث لها؟! فأصابها بهذا العرج. . . إنها تبدو جميلة. . . أوولدت هكذا؟!)

- (كلا. . . فلقد حصرت أمها قدمها فالتوى. . .)

فتعجبت (مترونا) وتساءلت من تكون هذه السيدة؟! ومن تكون هاتان الطفلتان. . . فقالت في صوت شاع فيه ما يجول في نفسها من دهش.

- (الست أمها إذن؟!)

- (كلا. . . يا سيدتي الفاضلة. . . لست أمها، ولست إحدى قريباتهما. . . لقد تبنيتهما. . .)

فزاد عجب (مترونا) وهي تقول:

- (ليستا طفلتيك. . . وتحبينهما هذا الحب؟!)

- (ليس لي حيلة في ذلك؟! أطعمهما وأربيهما. . . ولقد رزقني الله ولداً ولكنني احتسبته. . . وما كنت أحسبه مثل حبي هاتين الطفلتين!.

وطفرت من عينها دمعة حارة. . . تألقت في مقلتها. . . ثم

لم تلبث أن انحدرت على وجنها. . . فمسحتها في هدوء وحزن فقالت مترونا في أسف وتأثر: -

- (معذرة. . . ما كنت أحسب أن هذا يجلب إلى نفسك الحزن والألم. . . ولكن من هي أم هاتين الطفلتين؟.)

طفقت المرأة تحدثهم بقصة هاتين الطفلتين. . . وقد شاع الحزن في صوتها، وأرتسم الألم على جبينها فقالت:) إنها لقصة فاجعة. . .! لقد قضى أبوهما يوم الثلاثاء، ولحقت به أمهما يوم الجمعة بعد أن وضعهما. . . وكنت أنا وزوجي نعيش ككل الفلاحين في بساطة عيش ودقة حال، وكانت دارنا مجاورة لدارهم. لقد مات أبوهما وكان يقطع الأخشاب في الغابة تحت جذع شجرة هوت عليه من حالق، فسمعته وفاضت روحه قبل أن يبلغوا به الدار.

وبعد ثلاثة أيام. وضعت زوجته هذين التوأمتين - ولم يكن لها من ناصر أو معين فوضعتهما وحيدة. . . ولقيت منيتها وحيدة. . .! وفي اليوم التالي توجهت إليها، أنظر ما آلت إليه حالها. . . فما كدت أتخطى الكوخ، حتى وجدتها متيبسة الجسد وقد علت وجهها صفرة الموت. . . وتدحرج جسدها فوق هذه الطفلة، فأصاب ساقها العرج. . .!

وجاء القوم من القرية - وكلهم حزين، يأكل قلبه الألم - فكفنوها في خال وحملوها إلى المقبرة، ودفنوها جوار زوجها. . لقد كانت الطيبة تملأ نفوسهم والعطف يفيض من قلوبهم. . .! ولكن هاتين الطفلتين أصبحتا ومالهما من ولي أو كفيل. . . وكنت حينئذ المرأة الوحيدة في القرية التي عندها طفل لم يتجاوز أسبوعه التاسع. . . فضممتها إلى صدري. . . وعدت بهما إلى كوخي. فلما اجتمع الفلاحون راحوا يفكرون ويطيلون التفكير في أمرهما، وأخيراً، قالوا لي: عليك العناية بهما الآن يا ماري. . . وسوف ندبر أمرهما فيما بعد. . .!)

فأخذت على عاتقي أن أرضع هذه الطفلة الصحيحة، وأدع العرجاء. . . فما كنت أحسب أنها ستعيش. ولكني تساءلت: بأي ذنب تعاني هذه الطفلة ألم الجوع؟! فما لبثت الرحمة أن

فاضت بين جوانحي. . . فرحت أرضهما مع طفلي. . . وقد كنت لبانة يتفجر اللبن من ثديي في فيض لا ينقطع، وكان الله يأتيني برزق هاتين الطفلتين. . . فترعرعتا على حين توفى الله طفلي الوحيد، قبل أن يبلغ السنتين. . . وقد أقبلت علينا الدنيا بعد انصرافها عنا. . . فزاد حبي لهما وحناني عليهما. . .

أفعلمتم الآن سبب ذلك الحب؟! إنهما سعادتي في هذه الحياة، وأملي في هذه الدنيا. . .!) وضمت (السيدة) الطفلة العرجاء إلى صدرها بإحدى يديها، بينما ارتفعت يدها الأخرى لتمسح دمعة حارة تحدرت على خدها فتنهدت (مترونا). . . وقالت في صوت عميق وجرس ندي: (صدق من قال) يعيش المرؤ بغير والديه! ولكن لا يعيش بغير الله. . .!)

وران الصمت عليهم. . .! وفجأة انبثق في الكوخ نور باهر كأنه وميض البرق في ظلمات الشتاء. . . وشع الضوء من ذلك الركن الذي يجلس فيه (ميشيل). . . فالتقت عنده أبصارهم. وهو على كرسيه يحدق في سماء الغرفة. وقد افتر ثغره من ابتسامة حلوة. . . أشرقت في وجهة وأضاءت على جبينه. . .

فلما تهيأت المرأة للذهاب. حيتهم. . . وأمسكت بطفلتيها. ومضت بهما. . . فنهض (ميشيل) من جلسته. . . ووضع ما كان بيده وخلع عنه مئزره. . . ثم انحنى لسيمون وزوجته (مترونا) وقال في صوت شكور (وداعاً. . . أيها السادة. . . لقد عفى الله عني. . .! وغفر لي ذنبي. . .)

وراح ميشيل يتألق في ضياء تنبعث من هالة حوله. . . فانحنى سيمون وقال في صوت ملؤه العجب (لقد حدست إنك لست ببشر يا ميشيل. . . ولن أثقل عليك بتساؤلي. . . ولكن

آمل أن تخبرني: لماذا تألق وجهك حينما عثرت عليك في الطريق عريان جائعاً؟! ولماذا ابتسمت إلى زوجتي تلك الابتسامة الوضيئة حينما قدمت إليك الطعام؟! وحينما دخل ذلك (السيد الجليل) كوخنا، لنصنع له حذاء إفترثغرك عن بسمة مثيلة بها؟. وأخيراً حينما أتت هذه السيدة مع هاتين الطفلتين تألق وجهك بابتسامة ثالثة في جلال وبهاء. . .

نشدتك الله يا ميشيل أن تطلعني على سر ذلك الإشراق، وعلة هذه الابتسامات الثلاث؟!!). . .

قال ميشيل في صوت هادئ رخيم (لقد انبثق الضوء عني وأشرق النور مني لأن الله

يعاقبني. . . بيد أنه عزوجل غفرلي ذنبي أخيراً!. . . والسر في تلك الابتسامات الثلاث أن الله أرسلني كي أتعلم ثلاث حقائق. . . وقد تعلمتها. . .!

لقد تعلمت واحدة حينما فاضت الرحمة من قلب زوجتك. . . فكانت الابتسامة الأولى!!

وتعلمت الثانية حينما سمعت ذلك (السيد) يتحدث عن حذائه، فكانت الابتسامة الثانية!!

وتعلمت الثالثة عندما رأيت هاتين الطفلتين. . . فكانت الابتسامة الثالثة!)

فقال سيمون في دهش ورجاء (خبرني لماذا عاقبك الله يا ميشيل؟! وما هذه الحقائق الثلاث؟!

فأجاب ميشيل في صوته الهادئ الرخيم (لقد عاقبني الله لأني عصيت له أمراً. . . لقد كنت. . . ملاكا أسبح في ملكوته الأعظم. . . فأنزلني ذات يوم إلى الأرض لأقبض روح امرأة من خلقه. . . فأبصرها راقدة على سريرها وحيدة - وقد وضعت توأمين! - فلما أحست دنوي منها، أدركت أني رسول الله إلى روحها. . . فقالت وقد كادت أن تحبس صوتها الدموع: (أيها

الملاك. . . لقد مات زوجي منذ أيام وما لي من أخت أو عمة أو ولية ترعى طفلتي. . . فلا تقبض روحي! ودعني أرضعهما وأرعاهما حتى تستويا على سوقهما قبل أن أموت!! إن الأطفال لا تحتمل العيش دون أب أو أم!.)

فأصغيت إلى حديثها الرقيق الرفيق. . . ووضعت إحدى الطفلتين على صدرها والأخرى على ذراعها. . . وانثنيت آيباً إلى الله تعالى في السماء. . . وقلت في خشوع (إني عاجز عن أن أقبض روح هذه الأم. . . لقد قتل زوجها تحت جذع شجرة منذ أيام. . . وولدت لها اليوم توأمتان. . . وتوسلت إلى ألا أسلّ روحها قائلة (دعني أرضعها وأرعاهما حتى تستويا على سوقهما قبل أن أموت! إن الأطفال لا تحتمل العيش دون أب أو أم.!) (فعدت ويدي عاطلة من روحها!.) فسمعت الصوت العلوي يردد الأمر الجليل (اذهب. . . فاقبضها ولا تكن عودتك إلى السماء قبل تتعلم حقائق ثلاث):

(ما الذي فطر عليه الإنسان؟!)

(ما الذي حرم منه الإنسان؟!)

(ما الذي يعيش به الإنسان؟!)

فعدت طائراً إلى الأرض - وأنا أرتعد فرقاً من غضب الله وأنتفض جزعاً من عقابه.

فقبضت الروح. . . وسقطت الطفلتان من على صدرها، ومال جسدها على جانبها، فحطم ساق إحدى الطفلتين فالتوت. . . وهممت بأن أصعد إلى السماء أحمل الروح إليها. ولكن الريح أثقلتني وأخذت أجنحتي تتضاءل وتنسل من ظهري. . . فصعدت (الروح) وحدها إلى الله. . . بينما سقطت أنا على الأرض في جانب من الطريق!.)

فغر سيمون فاه. . . ونظرت (مترونا) في بلاهة يشوبها الدهش. . . لقد أدركا الآن من كان يضمه دارهم ويعيش بينهم

ويأكل من طعامهم. . . فترقرقت الدموع في عيونهما. . . وراحا يبكيان في نشيج ومزيج من الرهبة والمرح. والإجلال والفرح وانطلق الملاك يقول: (لم أكن أعرف حاجات البشر من جوع وعرى حتى صرت بشراً مثلهم. . . كنت وحيداً. . . يهرؤني القر، واتضور من الجوع. . . ولا أدري ما الذي أفعله في هذا العالم

وامتد طرفي. . . فلمحت كنيسة على مرماه. . فتوجهت إليها عساني أجد ثمت موئلا. . . بيد أنها كانت مغلقة. . . فتوجهت إلى ما وراءها. . . حيث قعدت أتوقى بها لريح الصرصر التي تسفح الوجه، وتصك الجسد. . .!

فلما غشى المساء عيون الكون. . . رأيت إنساناً يقبل وحيداً على. . . وبينه وبين نفسه حديث. . . ولأول مرة رأيت وجه الإنسان ذلك الوجه المخيف الميت فأشحت عنه برأسي. . . وطرق سمعي ذلك الحديث أو تلك الخواطر التي كانت تضطرب بينه وبين نفسه. . . وتنعكس على شفتيه فيرتفع بها صوته. . . كان يتساءل كيف أنه يقي جسده لفحة البرد وقشعريرة الشتاء، ويغذي زوجته وصغاره بماله اليسير. . .

فرمت أفكر (هذا إنسان يدبر ملبساً له في الشتاء. . . وطعاماً لعائلة. . . فكيف يقدم لي يد المساعدة؟!) فلما لمحني اضطرب فرقاً وجزعاً ومر بي في الجانب الآخر من الطريق. . . فتداركني اليأس، لولا أني أبصرته ينقلب راجعاً إلي. . . فرفعت إليه بصري فلم أعرفه. . . لقد كان يرتسم الموت على جبينه. . . أما الآن فسوف يعيش. . . لقد عرفت في شخصه وجود الله عز وجل.! ألبسني ثوباً عليه، وأخذني معه إلى داره حيث وجدت من هي أقسى قلباً وأشد كلاماً. . . لقد شاع في صوتها الموت، وأبصرت من حولها الهلاك. . . كانت تود لو ألقت بي إلى قارعة الطريق. . . ولو أنها فعلت ذلك لكان الموت من نصيبها.!

فلما بدأ الرجل يحدثها عن الله عزوجل، لان قلبها ومال إلى

فؤادها. . . فأحضرت لي الطعام، ونظرت إلى وجهي في عطف وشفقة. . . فعرفت في شخصها وجود الله. . .

فتذكرت أولى الحقائق الثلاث التي أمرني الله بأن أعلمها (ما الذي فطر عليه الإنسان؟!.).

فأدركت أن الذي فطر عليه الإنسان هو (الحب)!! وقد تولتني البهجة حينما علمت أن الله أوحى إليَّ بالدرس الأول. . . فافترثغري عن الابتسامة الأولى. . . ولكن بقي على أن أتعلم الحقيقتين الأخرتين: (ما الذي حرم منه الإنسان؟!) و (ما الذي يعيش به الإنسان؟!).

(مضى عام وأنا أعيش بينكم. . فلما أتى ذلك السيد الجليل يأمرنا بصنع حذاء له على ألا يبلى أو يخلق قبل أن تنقضي سنة على ذلك. . . نظرت إليه. . . وعلى حين غرة لمحت فوق رأسه رفيقي (ملاك الموت) ولم يره أحد سواي. . . ولكني عرفته، وأدركت أن الشمس لن تغيب عن الأفق إلا وقد غابت روح ذلك الرجل عن جسده. . . فتعجبت. . . إن هذه الرجل يعد العدة لعام بأكمله. . . ولا يحسب أن قضاءه قد حم. . . وأن المساء لن يأتي عليه إلا وجثته مسجاة هامدة. . .).

فتذكرت الحقيقة الثانية، فكأن الله يوحي إلى أن تعلم (ما الذي حرم منه الإنسان؟) فابتسمت للمرة الثانية. . .

ومكثت أنتظر أن يوحي إلى الله بالحقيقة الثالثة (ما الذي يعيش به الإنسان؟!).

وفي العام السادس. جاءت امرأة ومعها توأمتان صغيرتان فعرفت الطفلتين وعرفت أن الله قد قيض لهما من كان أحن عليهما من أمهما. . . فعاشتا وترعرعتا.!

ولما سمعت ما قصته علينا من كفلتهما رحت أفكر مستغرقاً (لقد توسلت إلى أن أدعها حية حتى ترعى الطفلتين. . . الضعيفتين. . . واعتقدت أنها على حق حينما قالت (إن

الأطفال لا تحتمل العيش دون أب أو أم...) بيد أن امرأة غريبة عنهما كفلتهما حتى نمتا وشبتا... وأدركت مبلغ ذلك الحب الذي يختلج بين جوانح بين تلك الظئر الحاضنة... فرأيت في شخصها وجود الله... وتعلمت الحقيقة الثالثة وهي (ما الذي يعيش به الإنسان؟!)... إنه (الحب)... وعلمت أن الله أوحى إلي بالدرس الأخير... وأنه عفى عما تقدم ذنبي ومن عصيان أمره على غير بصيره... فكانت الابتسامة الثالثة!!.)

أضحى (الملاك) وهوَ عار مما عليه... يشع من جسه نور قوي يبهر الأبصار...

وراح صوته يخفت وينخفض حتى صار، وكأنه لا يأتي من فيه... بل يأتي... من السماء...!

(لقد علمت أن البشر لا يعيشون بالحرص على حياتهم... بل بالحب المغروس في قلوبهم وهل نفع حرص الأم على بنيتها؟! لا بل كان حب الظئر لهما!!.

ولقد عشت - عندما كنت إنساناً - لا بالحرص على حياتي... بل بالحب يختلج بين جوانح عابر سبيل... وبالرحمة والعطف الذي انبثق في فؤاده هو وزوجته على...

إن الحب شيء فطر عليه الإنسان وغرس في قلبه... وعليه يعيش وبه يحيا في هذه الدنيا...! وكنت احسب أن الله وهب الحياة للبشر، ومنحه الأمل في أن يعيش... بيد أني الآن علمت أشياء أخرى...! علمت أن الله لم يخلقه كي يعيش وحيداً فريداً. بل خلقه ألوفاً ساعياً للارتباط بغيره... عرفت أن المرأ مع تخيله أنه يعيش بالحرص على حياته... فهو يعيش في الحقيقة بالحب... لأن من كان الحب يملأ قلبه... فهو يعيش في الحقيقة بالحب... لأن من كان الحب يملأ قلبه... ففيه نفحة من الله... فالله عزوجل هو الحب... والحب هو الله!!...)

ثم ارتفع صوت (الملاك) في جرس ندي يردد أنشودة ملائكية يحمد فيها الله ويثني على آلائه!! فكان الكوخ والأشجار والطيور تتراقص وتهتزوكأنها تسبح بآيات الله... وانحسر سقف الكوخ حيث ارتفع عمود من النور يربط السماء بالأرض. . . فخر (سيمون) وزوجته وأطفاله وقد ملكت نفوسهم الرهبة والخشوع، وملأت قلوبهم الخشية والإجلال!. ونبت (للملاك) جناحان على كتفيه. . . حيث راح يسبح بهما مصعداً إلى السماء. . .!

فلما أفاق (سيمون). . . وراح يقلب طرفه فيما حوله. . . رأى الكوخ وقد أصبح كما كان. . وليس فيه سوى زوجته (مترونا) وأطفاله الصغار. . .

obeikandl.com

بعد المعركة

كان صديقي إيجور دريموف شخصا متزنا يسود عليه الجد. أحب والدته ماريابوليكا ديوفنا ربوفنا ووالده إيجور إيجونوفتش فكان يقول، (أبي رجل يحترم نفسه، وكثيرا ما علمني أن أفتخر بروسيتي) وخطب فتاة في تلك المدينة الصغيرة. وكثيرا ما يتحدث الجنود في الميدان، وبين فترات القتال عن الزوجات والحبيبات، يتحدثون في الملاجئ، وهم في مأمن من البرد القارس، ومعدهم ملأى، ونور الشمع يوحي بالحديث. فتسمع كل ناحية من ذلك الموضوع، مثلا (أساس الحب الاحترام والحب مجرد عادة، فالإنسان يوزع حبه بين زوجته ووالديه وحيواناته) ويقول آخر (يبدأ الحب عندما يفور دمك، وشعور المحب كشعور المخمور والجذل المرح) ويستمر الحديث ساعات، ولا ينتهي إلا بكلمة أوامر من أحد الضباط.

أما إيجورد ريموف فلم يشترك كثيرا في مثل هذه الأحاديث وإذا أشار إلى خطيبته كان ذلك بأسلوب غير مباشر، فتراه يقول مثلا (فتاة طيبة تنتظر صديقها حتى ولو جاء على رجل واحدة)

ولا ينقاد إلى التحدث عن مغامراته الحربية. وعندما يمتدحه أحد أصدقائه يقول (الأفضل أن لا تتحدث عن هذه الأشياء) وكل ما عرفناه عنه كان من أحاديث زملائه؛ كنا نتوسل إلى سائقه تشفيلوف ليقص علينا أخباره، فيصف

لنا مثلا كيف كان ينقض على العدو في المصفحة مطلقا عليه ألسنة اللهيب، فلا يكاد يصل إليه حتى يصرعه. وكم من معركة خاض غمارها وعاد سالما بعد أن يكون فقد عددا من رفاقه وقد أبلى بلاء حسنا دائما وقصص شجاعته عديدة.

وعلى هذه الحال حارب الملازم إيجور دريموف إلى أن أقعده الحظ. كان ذلك في معركة كيسرسك بحيث كان النصر في بادئ الأمر للألمان، واشترك فيها بدبابته، وما كاد يدخل المعركة حتى قتل اثنان من رجاله. ثم اشتعلت النار في الدبابة. أما السائق (تشفيلوف) فقد تمكن من مغادرة الدبابة المشتعلة، وسحب الملازم الذي كانت ثيابه تحترق وهو مغمى عليه وأخيرا انفجرت الدبابة وتناثرت قطعا إلى مسافة تزيد على 150 قدما وأقبل تشفيلوف على الملازم ليطفئ النار المشتعلة في ثيابه وجره إلى مكان أمين. ويقول تشيفيلوف (إنما فعلت ذلك لأني شعرت أن فؤاده ما زال ينبض بالحياة) عاش إيجور دريموف حتى ولم يخسر بصره لكن تشوه وجهه جدا حتى أن العظم ظهر في بعض الأماكن، وبقي في المستشفى ثمانية أشهر، وأجريت له عدة عمليات متوالية لإعادة أنفه وشفاهه، وأجفانه وأذنيه. وعندما نزعت عنه الأربطة بعد الشهور الثمانية، وكانت معالم وجهه قد تغيرت تماما حتى لم يعد فيه شبه للصورة التي كان عليها قبلا. ولما ناولته الممرضة المرآة ليرى وجهه أدارت وجهها بسرعة كي لا يلاحظ الدموع في عينيها من شدة تأثرها بمنظر وجهه. وأعاد إليها المرآة قائلا (كان من الممكن أن تكون المصيبة أكثر مما هي الآن، على كل حال يكفي أني بقيت حيا) ولم يطلب المرآة مرة أخرى، بل اكتفى بلمس وجهه الجديد كأنه يعود نفسه أن تألفه. وسرح من الخدمة العسكرية بناء على تقرير طبي. لكنه ذهب إلى قائده ورجاه أن يسمح له بالالتحاق بفرقته ثانية. ودارت هذه المحادثة بينهما.

(لكنك أصبحت غير قادر على الخدمة) (لا يا سيدي بل لقد أصبحت مخلوقا غريب المنظر ولا أرى كيف يجعلني ذلك غير صالح للقتال) ولاحظ أن القائد كان يتجنب النظر إليه أثناء الحديث، فابتسم بشفتيه الاصطناعيتين الرقيقتين. أعيد إلحاقه وأعطي أجازة مدتها ثلاثة أسابيع، فذهب ليقضيها في البيت، وكان ذلك في الأول من آذار. ولدى وصوله اقترب محطة من قريته، حدثته نفسه أن يستأجر عربة تقله إلى البيت لكنه عاد فقرر أن يقطع المسافة وهي اثنا عشر ميلا مشيا.

كان الثلج كثيفا والهواء الرطب يهب باردا جدا، فيتخلل أطراف معطفه محدثا صوتا كله حنين إلى البيت، ووصل القرية عند الغروب.

رأى وطنه الصغير بخير والطيور على الأشجار تغرد؛ أمامه الآن بضعة بيوت، والبيت السادس يسكنه أبواه. اقترب من البيت ووقف عند الباب لا يجرؤ على الدخول ثم ذهب إلى جانب البيت ونظر في النافذة وكان الثلج يصل إلى ركبتيه. رأى أمه على ضوء المصباح الخافت تعد المائدة للعشاء. وبدت أمه كما يعهدها تماما - طيبة القلب، هادئة، وعلى رأسها تلك القبعة الصغيرة نفسها وقد تغيرت عما كانت عليه عندما رآها لآخر مرة، إذ انحنى ظهرها قليلا. (ليتني كتبت لها قبل مجيء، ليتني كتبت بضعة أسطر كل يوم) كانت تضع الحليب وقطعا من الخبز الأسمر والملاعق والملح، ثم وقفت مكتفة الأيدي وساد عليها التفكير أو الحيرة؟!

شعر إيجور دريموف وهو يراقب والدته من النافذة أنه لا يستطيع أن يوجه إليها هذه الصدمة إذا عرفت أن هذا المخلوق المشوه هو ابنها! ووطد العزم على ألا يعرفها بنفسه، وقرع الباب. سألت الوالدة (من بالباب) فأجاب (أنا الملازم جرينوف أحد أبطال الاتحاد السوفيتي). ووجد أن خفقات

قلبه قلت وزال عنه القلق عندما رأى والدته لم تميز صوته. حتى هو نفسه أخذ يلاحظ أن صوته قد تغير بعد تلك العمليات ومن جراء الأهوال، فقد أصبح صوته خشنا وحادا. وقالت الأم (ماذا جرى؟) فيجيب (أحمل رسالة إلى ماريا بوليكا دبوفنا من ابنها الملازم الأول دريموف) ولما سمعت ذلك ضمته بإحدى يديها وصافحته بالأخرى بحرارة قائلة (إذا ولدى ايجور مازال حيا؟ تفضل ادخل وحدثني عنه) جلس إيجور دريموف إلى المائدة حيث كان يجلس وهو صغير يوم كانت رجلاه لا تصلان الأرض وأمه تخاطبه - (قل يا أعز الناس لدى) - أخذ يحدثها عن ولدها أنه بخير وصحته جيدة وأنه سعيد. لكنه لم يذكر لها المعارك التي خاض غمارها بدبابته. وتقاطعه قائلة - (قل لي الحياة في الجبهة فظيعة رهيبة، أليس كذلك؟). (نعم أيتها الوالدة، إن الحرب كلها يظائع وويلات، ولكن الإنسان يألفها مع الأيام).

بعد قليل جاء والده وقد بدا أكبر مما كان وذقنه بيضاء وكأنما اعتراها غبار أو طحين مسح الثلج عن رجليه وخلع معطفه المصنوع من الفراء وصافح الضيف. في هاتين اليدين الكبيرتين يلمس الإنسان الأبوة اللطيفة! وإيجور دريموف يعرف هاتين اليدين فطالما لمسهما! جلس والده ليستمع إلى ذلك الجندي الذي غطى صدره بالأوسمة دون أن يسأله أي سؤال. وكلما طال الوقت على دريموف وأهله لم يميزه كلما ضاق صدره ويهم أن يقول (ميزوني تتعرفوا إلى، بعد أن أصبحت إنسانا غريب المنظر)، لكنه يتراجع.

مما يبعث السرور في نفسه، أنه يجلس على مائدة أبيه غير أنه في نفس الوقت كان كمن خاب أمله والآن حان وقت الطعام، فهل لديك ما نقدمه لضيفنا أيتها الأم؟) قال الأب هذا، وفتح جارورا في طرف الطاولة لا تزال فيه سنارات لصيد

السمك في علبة كبريت فارغة تخص ولده. وفاحت رائحة مألوفة، هي رائحة البصل والخبز. وأخرج زجاجة خمر صغيرة بقى فيها ما يملأ قدحين صغيرين فقط. وبينما كانوا يأكلون، لاحظ دريموف أن أمه تحاول أن ترى كيف يمسك المعلقة ولما التقى نظرهما غضت طرفها وعلى وجهها مسحة من الحزن والشفقة، فابتسم. طرقوا مواضيع عديدة. المزورعات والحاصلات، الأمل بانتهاء الحرب في الصيف (ولماذا تعتقد يا سيد إيجورفتش بأن الحرب قد تنتهي في هذا الصيف؟).

فأجاب الأب (الشعب هائج، بعد هذه المصائب التي سببها لهم الألمان، لن يقف في وجههم شيء، وهنا قالت ماريا (لم تخبرنا متى يأتي ولدنا في أجازه بعد أن مضى ثلاث سنوات على غيابه عنا؟ ربما تغير شكله كثيرا الآن وربما كان له شاربان ويعيش كهؤلاء الذين يقطنون في جوار الموت. قد يكون صوته تغير؟) (ربما لا تعرفينه متى عاد)

وضعوا له فراشا في إحدى زوايا الغرفة، قريبا من الموقدة؛ في تلك البقعة التي يعرف كل حجر فيها وكل ثقب وعقدة في السقف، ورائحة الخبز، ورائحة البيت، الرائحة التي لا ينساها الإنسان حتى ساعة الموت. وهبت رياح شديدة في الخارج. وكان يسمع شخير والده من وراء الحاجز وكان سهلا عليه أن يتصور أمه مسهدة تصعد الزفرات والملازم مضطجعا على جانبه ورأسه على يده وقد أخذ يقول في نفسه: أحقا يا أماه لا تستطيعين أن تعرفيني؟ واستيقظ في الصباح على صوت طقطقة الحطب وهو يحترق في الموقدة، ورأى أمه منهمكة في عملها قرب النار وجوربيه قد غسلا وعلقا على الحبل وحذاءه نظف ومسح؛ وسألته والدته إذا كان يحب الجبنة مع البسكوت. وبعد أن جلس إلى المائدة قال (طلب إلى دريموف أن أبلغ سلامة إلى كاتيا ابنة أندري سيفانوفتش، فهل لا تزال

تسكن قريبا منكم؟) (نعم وقد أنهت المدرسة في العام الماضي وهي تعلم الآن. سأدعوها لك) ثم خرجت تدعو كاتيا مانيشفا، وما كاد الملازم يلبس حذاءه حتى جاءت كاتيا تركض ووقفت أمامه، وها هي عيونها الواسعة اللامعة وحاجباها وقد ارتفعا في دهشة واستغراب، وزاد احمرار خدودها المتوردة عندما ألقت بالشال الصوف الذي كان في يدها. وتمنى لو يقبل هذه الشفاه اللطيفة. بدت أمامه كما كان يتصورها: عروس المستقبل، نضرة مرحة، ناعمة، تكسوها العافية وقد أضاءت الغرفة عندما دخلت.

(هل جئتني بأخبار من إيجور؟ قل له إني أنتظره في الليل والنهار) أداروجهه من النور ليراها بوضوح؛ اقتربت منه لكنها همت بالتراجع عندما رأت ملامحه. وأراد أن يكشف عن نفسه في ذلك اليوم وفي تلك اللحظة ولكن لم يفعل: وطلبت إليه أمه أن يجلس ويأكل الكعك مع الحليب.

وتكلم إيجور دريموف ولم يعلق على اشتراكه في القتال وتجنب أن ينظر إلى كاتيا كيلا يرى انعكاس بشاعته في عينيها. واقترح أبوه أن يأتيه بحصان يركبه لكنه فضل أن يعود مشيا كما جاء.

لقد تأثر جدا من تلك الزيارة، وكان في الطريق يتحسس وجهه ولا يدري ماذا يفعل بنفسه!

ولما عاد إلى المعسكر اهتم به أصدقاؤه كثيرا وصار يأكل ويشرب ويضحك مثلهم بنشاط وسرور وكأن لم يحدث له شيء. قرر أن يخفي الحقيقة عن أمه. أما ذكريات كاتيا فرأى أن يخرجها من مخيلته كسن تسبب ألما ويجب خلعها.

وبعد أسبوعين تسلم رسالة من أمه:

(تحيات يا حبيبي. ترددت قبل لأني لم أعد أعرف بماذا أفكر؟ جاءنا شخص من طرفك - شاب لطيف جدا لكن وجهه

مخيف. وكأنه كان يرغب أن يمكث قليلا لكنه عدل عن ذلك فجأة. ومنذ تلك اللحظة لم أنم ويبدو لي أن ذلك الشاب هو أنت. أما والدك فيقول بأني مجنونة. وربما أنا مجنونة إذ لو كان ذلك الشاب ولدنا لقال ذلك، ولماذا يخفي ذلك عنا؟ كان له وجه يفتخر به! ويحاول والدك أن يقنعني لكن قلب الأم يقول لي، إنه ولدك! اكتب لي يا حبيبي إيجور بالله عليك أشفق علي وأخبرني هل كان ذلك صحيحا أم أنا مجنونة؟

وأطلعني صديقي دريموف على هذه الرسالة كصديق ولما قص على القصة كانت الدموع تملأ عينيه فيجففها بمنديله. لقد ارتكبت خطأ جسيما أيها الغاشم، اكتب لأمك حالا وأطلعها على الحقيقة واطلب الصفح منها. سيزداد حبها لك وأنت في هذه الحال وفي اليوم نفسه كتب لأبويه:

(والدي العزيزين، لقد كان ذلك الشاب ولدكم، أنا. . .) وراح يملأ أربعة صفحات من الحجم الكبير وبخط صغير، فكتب رسالة تشغل عشرين صفحة من الحجم العادي.

وبعد أيام كنا نتدرب في الميدان عندما جاء أحد الجنود إلى إيجور وخاطبه قائلا: يا عزيزي الكابتن يدعوك. وتبعته إلى الثكنة التي يسكنها معا، وهناك سمعته يقول (مرحبا يا أمي هاأنذا) ورأيت سيدة عجوزا قصيرة ضئيلة الحجم تعانقه، وكان هناك امرأة أخرى - لم أر مثل ذلك الجمال حيا يتنفس طيلة حياتي!! رفع والدته عن صدره وخاطب الفتاة. (لماذا أتيت يا كاتيا؟ لقد وعدت ذلك الشاب الذي كنت تعهدينه بأن تنتظريه وليس أنا الذي لم تستطيعي. . .) لكنها قاطعته: (إيجور قررت أن أقضي العمر معك، فلا تبعدني عنك من الآن).

obeikandl.com

الخير والشر...![2]

حدث في الأيام التي خلت وطوتها صفحات الدهر منذ القدم... أن كان ثمة رجل رضي النفس طيب القلب جليل الشأن عظيم القدر... أقبلت عليه الدنيا وأتاحت له وفراً من ماله فملك الضياع والديار... وراح يعيش في ثراء ورغد، ومن حوله جمع من العبيد يقومون على خدمته ويتولون قضاء حاجته. وقد بثهم سيدهم من الود وأخلص لهم من العطف ما جعل أفئدتهم تخفق بحبه وألسنتهم تلهج بحمده.!

وراحوا يتيهون بسيدهم فخراً وزهواً، يغبطون أنفسهم على هذا الفضل وهذه النعمة ويعربون لجيرتهم عن مبلغ هناءتهم قائلين:

(لم تطلع الشمس على من يضاهي سيدنا في طيبته ورقة عاطفته... فهو يطعمنا إذا ما أدركنا الجوع، ويخلع علينا من الثياب كل طريف ومن الأبراد كل جميل، ويهيئ لنا أعمالا تتفق ومقدرتنا وقوتنا... وما تلفظت شفتاه يوماً بكلمة سوء يرمينا بها ولا بيت لنا حقداً ولا ضغناً... فما هو كالسادة الآخرين الذين يذيقون عبيدهم هول العذاب ويقسون في عقابهم سواء أحق عليهم أم لم يحق.! ولا يحنون عليهم بكلمه عطف

2- في هذه القصة التي تتنازعها عوامل الخير والشر، وتضطرب فيها دوافع الحق والباطل... نلتقي بعبقرية تولستوي الفذة وعقله الجبار في خير ما سطره يراعه في تمجيد الفضيلة ورفعتها.! فهو يجلو لنا في ثنايا هذه القصة صفحة بارعة من الحلم والتسامح والعفو وضبط النفس التي تنزع بالمرء إلى ركوب متن الشطط والغي...

ولا يواسونهم إذا ما مسّهم الضر. . . أما سيدنا فقد وهبه الله قلباً يتمنى لنا الخير ونفساً ترجو لنا السعادة. . . نحن لا نأمل في حياة أهنأ ولا أرغد من هذه.!).

فضاق الشيطان ذرعاً بذلك الحب والود الذي يكنه العبيد لسيدهم، فعمد إلى واحد منهم يدعى (ألب) فسخره ليوغر صدورهم ويشيع بينهم الفتنة والعصيان ويسرب إليهم الفساد. . .

وبينما هم جلوس ذات يوم يتناقلون حديث العطف والكرم الذي يسبغه عليهم سيدهم ويحوطهم بفضله. . . رفع (ألب) صوته قائلا في خبث ودهاء: (إن من الغباء والحمق أن نغرق سيدنا بهذا الحمد ونحيطه بتلك الهالة من المديح. . . وهو لا يستحقها. فالشيطان قدير وكفيل بأن يكون كيساً رقيق الحاشية معكم إذا ما أديتم له كل ما يروم!. فنحن نخدم سيدنا في وفاء وإخلاص ونحقق له كل ما يساور نفسه ويراود فؤاده من بغيات. . . فما الذي يسعه سوى أن يكون رحيماً كريماً معنا؟!. دعونا نحاول أن ندفع إليه ضرراً ما ثم ننظر ما يكون من جلية أمره. . . وإني لعلى يقين من أنه لا يفضل أقرانه السادة. فلسوف يلقى إساءتكم بمثلها بل وأشد منها. . .).

فانطلق بقية العبيد ينكرون هذا القول، ويدرءون الشبهات عن سيدهم وولي نعمتهم. . . بيد أنهم ما لبثوا أن عقدوا فيما بينهم رهناً مع (ألب) الذي أخذ على عاتقه أن يثير حفيظة سيده ويلهب غضبه. . . وقد تعهدوا بأن يدفعوا إليه بالثياب التي يحرمه منها سيده، ويقوموا مدافعين عنه أمامه أو يعمدوا إلى إطلاق سراحه أن حبس أو غل بالقيد!.

كان (ألب) راعياً مسئولا عن فِرْزٍ من الغنم النادرة الغالية التي يعتز بها سيده. . .

وفي اليوم التالي حينما أقبل سيده في صحبة من أضيافه

ليريهم ويمتع ناظرهم بتلك الأغنام الكريمة. . . غمز (ألب) بحاجبه لرفاقه وكأنه يقول لهم (انظروا الآن إلى أي حد سأثير غضبه وحنقه!.).

وتجمّع العبيد يمدون طرفهم من فوق سياج المرعى! وتسلق (الشيطان) شجرة سامقة حيث استقر فوقها وراح يرقب ما سوف يعمله (ألب) خادمه ورسوله.!

وتهادى السيد مع صحبه يعرض عليهم شياهه وحملانه. . . وانثنى يقول لهم وقد رنّ في صوته جرس الإعجاب والزهو: (إنها جميعاً كريمة نادرة، ولكن بينها كبشاً أصوف أعقص القرن - لا يقدر بمال - أعتز به كما أعتز بمقلتي.!).

وشاع الاضطراب بين حشد الأغنام، فانطلقت تعدو إلى جهة أخرى من المرعى، فلم تنهز للزائرين سانحة لرؤية ذلك الكبش الذي نوه صاحبه بجلال قيمته وعظم شأنه. . .

ولم تكد تستقر الشياه في مكانها حتى أثارها (ألب) من جديد فعادت تجري إلى كنف آخر، وهي تضطرب فيما بينها، وفوَّت على الزائرين نهزة اجتلائها وتبيُّن الكبش. . فلم يجد السيد بداً - وقد أدركه العناء وبرح به الإعياء - من أن يدعو (ألب) قائلاً: (أرجوك أن تحول بين ذلك الكبش الأعقص القرنين وبين الهرب وأمسك به معتنياً حتى تتاح لنا رؤيته)!

ما كاد السيد يقول ذلك، حتى انطلق (ألب) بين الشياه كالأسد الذي يسعى بين رعيل من الظباء!. وقبض على صوفة الكبش في عجلة وتناول رجلاً من أرجله فلواها في شدة حتى تهشمت عظامها وصارت له قعقعة الغصن اليابس حينما بطؤه الإنسان. . لقد حطم ساقه وجعله يخر على الأرض وهو يئأج ويثغي في ألم. . ثم لم يلبث (ألب). أن أمسك برجل أخرى وحاول أن يلحق بها ما أصاب سابقتها!

فصاح الزائرون في جزع، وهتف العبيد في هيعة وفزع.

وطرب الشيطان وهو قابع في مكانه على الشجرة، وهلل فرحاً لما رأى من نجاح خادمه وهو يسعى لإثارة سيده! وتقطَّب جبين السيد وعلتْه كآبة سوداء تنذر بعاصفة هوجاء، وزمهرت عيناه وقد اتقد فيهما لهيب الغضب والحنق والسخط. . وقد كاد أن ينشق من الغيظ. . بيد أنه طأطأ برأسه ولم ينبس ببنت شفه. .

ران الصمت - ولكنه صمت رهيب - على الأضياف وعلى العبيد وقد تعلقت أنفاسهم يترقبون ما سوف يتمخض عن هذه الجناية على الكبش المسكين الذي لا يُلفى له نظير!

وبعد هنيهة من السكون، هز السيد كتفيه وكأنه قد تخلص من حمل ثقيل كان يجثم على قلبه. . . ثم لم يلبث طويلا حتى رفع رأسه ومد بصره إلى الأفق البعيد مستغرقا في فكره لا يريم.!

وبغتة.! غاب التقطب عن صفحة جبينه وانفجرت أسارير وجهه وهدأت نفسه وقد عصف بها الاضطراب. . . ونظر إلى (ألب) في عطف وعلى ثغره ابتسامة عذبة. . . وقال في صوت رقيق شاعت فيه الوداعة والطمأنينة:

(إيه. . . يا ألب. . . لقد أغواك صاحبك الشيطان بإثارة غضبي ولكني سوف أخيّب مسعاه وأثير غضبه هو. . . فلست بحانق عليك ولا ساخط منك. . . إنك لتخشى عقابي ويداعب نفسك أمل في أن أعتق رقبتك!. فاعلم - إذن - أني لن أمسّك بسوء، كما أني - أمام هؤلاء الأضياف وتحت سمعهم وبصرهم - أطلق حريتك. . . فاذهب أينما شئت. . . فأنت حر من هذا اليوم. ولك أن تحمل معك ما تود من ملبس وطعام.)

وانثنى السيد عائداً مع رفقته إلى داره في هدوء وبشر أما الشيطان - وقد باء مسعاه بالخسران المبين - فقد هوى من فوق الشجرة. . . وغار في الأرض. . .

بشر وشياطين

ما كاد الصبح يتنفس، وتخفق جنبات الكون بالحياة.. حتى هرع الفلاح الفقير يغذ الخطى إلى حقله... وقد بكر في غداته يروم الحرث والفلح... ويحمل معه كسرات يابسة من الخبز ليفطر ثمة بها...

فلما هيأ محراثه وربط إليه حصانه... علق ثوبه - وقد أودعه كسرات الخبز - إلى شجيرة دانية... وانطلق يشق أديم الأرض ويقلب الترب... حتى إذا ما تصرمت ساعات الصبح، وتراءت الضحى وأدركه العناء، وتبدى الإعياء والسغب على حصانه... أطلقه في سبيل الكلأ... وانثنى هو إلى شجيرة يبتغي الكسرات يسد بها جوعه الذي يبرح به...

فما إن بسط ثوبه حتى تولاه العجب.! إذ ألفى الخبز قد اختفى منه... فقلب الثوب بين يديه وراح يهزه، ولكن عبثاً!. فليس للخبز من أثر. فقال - يحدث نفسه وما زال الشك يتوزعها - (عجباً!!.. إن هذا غاية في الغرابة، إني لم ألمح أي إنسان هذه الصبيحة!. لعل أحدهم كان هنا، وأخذ معه الخبز.!).

أجل لقد أخذه واحداً من الشياطين الصغار، بينما كان الفلاح مستغرقاً في عمله... وكان في ذلك الحين قاعداً خلف الشجيرة يترقب ما سوف يتفوه به الفلاح من لعن وسباب...

فاض قلب الفلاح بالأسف وألم به الضيق لضياع الخبز الذي أعده لفطوره، بيد أنه ما لبث أن ارتفع صوته في هدوء:

(ليست ثمة حيلة. . . وعلى كل حال فلن أقضي من الجوع!. وإني أحسب أن من استولى على الخبز أشد مني حاجة إليه. . . فهنيئاً لمن أخذه!.).

ومضى إلى جدول. . فرشف منه بعضاً من الماء ينقع به غلته. . ومال يستريح من عناء العمل ومن قرصة الجوع. . . وبعد حين أسرج جواده وقيده إلى المحراث وعاد يقلب به صفحة الترب من جديد. . .

فطأطأ الشيطان الصغير برأسه. . . وقد ركبه الخجل والألم لإخفاقه في حمل الفلاح على أن يزل لسانه ويشرع في سبيل الخطيئة. . . وانثنى إلى أستاذه الأكبر (إبليس) يروي له ما حدث! وكيف أنه أخفى عن الفلاح الفقير البائس كسرات الخبز فلم يحمله هذا على أن يتلفظ بكلمات السوء. . . بل قال وهو قرير النفس (هنيئاً لمن أخذها.!).

فصاح فيه (إبليس). . . وقد تملكه الغضب وزاد تلهب عينيه وكأنهما جمرتان وسرى الحنق والسخط إلى نفسه: (إنه خطؤك أنت. . . فلست تفقه ما ينبغي عليك أن تعمله. . . فبهذه الطريقة سوف يعيش الفلاحون وأزواجهم وذريتهم سعداء في راحة وهناء. . . يجب عليك أن تبث الضغينة وتنفث فيهم البغضاء وتفسد قلوبهم وتثير الحقد في نفوسهم. . . فهذه رسالتنا منذ أن خلق البشر. . . انطلق ثانية. . . وإني لأمهلك ثلاث سنوات لتصلح ما أتيته من خطأ. . . فإذا عدت بعدها ولم تفلح في أن تدع الشر ينساب في قلب ذلك الفلاح، فسوف أغرقك في الماء المقدس).

فارتعدت فرائص الشيطان الصغير من الفرق والهلع، وهو يرى أستاذه الأكبر يتوعده بالثبور والعذاب الأليم. . . فغاص في باطن الأرض، وهو يجهد ذهنه ويعصره بحثاً عن حيلة توغر قلب الفلاح، وتدفع عنه غضب إبليس. . . وما أرهبه من

غضب!. فراح يفكر ويطيل التفكير حتى عثر على خطة بارعة.

فانقلب في شكل واحد من بني آدم. . . وتمثل بشراً سوياً. . . وذهب إلى الفلاح حيث سأله عملاً بأجر رخيص. . . فلم يجد هذا بأساً في أن يلحقه بخدمته ليكون له عوناً في زراعته.!

وفي السنة الأولى أشار على الفلاح بأن يزرع قمحاً في أرض غدقة جرداء ذات جدب ومحل. . . فعمل الفلاح بمشورته، وبذر قمحه في تلك الأرض السبخة. . . فلما انقضى الحول - وكان ذا صيف صيهد شديد الحر - لفحت الشمس غلال الفلاحين الآخرين فأحرقتها. . . دون قمح ذلك الفلاح فقد نما كثيفاً، وغلظت سنابله ودحس حبه. . . ففاض

عن حاجته بعد أن أترعت خزائنه وامتلأت. . . فألقاها جانباً. . .

فلما حان موعد الزرع من جديد أخذ الشيطان يزين له أن يبذر القمح هذه المرة في سفح الجبل. . . فرضخ الفلاح لمشيئته. . . بيد أن الصيف في هذه السنة كان طلقاً ذا ريح سجسج. . . فتلفت غلال الآخرين وعفنت ولم تجدل لها سنابل. . . أما الفلاح فقد تأتى له حصادٌ طيب أبلغ في الوفرة من سابقه. . . فحار الفلاح فيما يفعله بكل تلك الزيادة. . .

وحينئذ أوحى إليه الشيطان كيف يستخلص الخمر من الحنطة فينقعها حيناً ثم يقطرها حتى يبلغ منها الراح فيعتقه ثم يشربه. . .

فراح الفلاح يقطر الخمر. . . ويودعها في دنان. . . ثم يدعو رفاقه لينهلوا منها معه حتى ينهلهم الثمل والسكر.!

عاد الشيطان الصغير إلى أستاذه (إبليس) يحدثه بما فعل في زهو وخيلاء. . . فأخبره أستاذه الأكبر بأنه سوف يرافقه، فيرى بعينه ما وفق إليه تلميذه ورسوله. . .

فلما بلغ دار الفلاح ألفى هذا قد جمع حشداً من صحابه

وجيرته يدعوهم إلى الشراب وكانت زوجته تدور عليهم بالقداح، فينهلون منها ويعلون، وبينما هي تمد يدها ببعض الشراب إلى واحد منهم. . . تعثرت قدمها فهوت على الأرض وتحطمت إحدى الدنان. . .

فاحتدم غيظ الفلاح، واستشاط غضباً على زوجته. . . وانطلق يعنفها ويلعنها: (ما هذا أيتها الكسيحة الحمقاء؟! هل عميت حتى تهرقي هذه الخمر النفيسة على الأرض؟! اغربي عن وجهي. لعنة الله عليك!.).

فلكز الشيطان الصغير أستاذه (إبليس) في جنبه بمرفقه وهو يقول في صوت رن فيه جرس الانتصار والزهو: (انظر. . . هذا هو الرجل الذي لم أتمكن من إثارة غضبه حينما كان الجوع يصرخ في أمعائه. . . وقد ضاعت منه كسرات الخبز!.)

وقام الفلاح يناول الخمر أضيافه. . . وما زال لسانه يجري باللعن والسب على زوجته. . . وحينئذ دلف إلى الدار أحد الفلاحين، وهو عائد لتوه من حقله. فرأى القوم ينهلون الخمر. . . فحدثته نفسه بأنه واجد عندهم بعض الشراب يبعث الراحة في نفسه، وقد أنهكه التعب وأضناه العمل. . . فجلس إلى أحد المقاعد وراح يتلمظ القطرة من الشراب. ولكن صاحبنا الفلاح - بدلاً من ان يجود عليه ببعض الخمر- قال له في صوت أجش شاعت فيه

الغلظة: (ليس عندي شراب لكل عابر سبيل!. . فتفضل بمغادرتنا).

فترسمت على شفتي (إبليس) ابتسامة. . . بيد أن الشيطان الصغير ما لبث أن همس في مسمعه: (انتظر بعض الوقت! وانظر ما سوف يفعلون!.).

نهل الرفقاء الأغنياء مع صاحبهم الفلاح، وجرعوا من الصهباء ما طاب لهم، ولذ لمذاقهم. . . وبدأت تسري بينهم

أحاديث النفاق والخداع، وتجري على ألسنتهم ألفاظ السوء والنميمة... وتطير بين شفاههم كلمات الملق والمداهنة والرياء.

فأصغى (إبليس) لما يقولون. . . وسره ما رآه من نبوغ تلميذه الشيطان... وقال (إذا كان هذا الشراب يحملهم على أن يتبادلوا أحاديث المكر والخداع كما هي خلال الثعالب فإن ذلك يجعلهم عجينه طيعة في أيدينا نحن الشياطين!.).

فأجابه الشيطان الصغير: (دعهم يتناولون زقاً آخر من هذه الخمر. . . ثم ارقب ما يكون من أمرهم. . . إنهم الآن يبصبصون بأذنابهم كالثعالب، ويتماكرون في دهائها ولكن بعد حين سوف ينقلبون إلى ذئاب وحشية!.)

وزع الفلاح على الأضياف كؤوساً أخرى من الخمر فراحوا يعبون منها في نهم. . وبدأت أحاديثهم ترتفع وتخشن. وتنساب في رنتها غلظة ووحشية... فبعد أحاديث الملق والرياء، راحوا يتقاذفون بألفاظ السباب والشتائم، ويزمجرون في أصوات مخيفة ويلطم كل منهم الآخر على أنفه ويصفعه على وجهه واشتبك معهم كذلك الفلاح صاحب الدار...

فمد الشيطان الأكبر طرفه إلى ذلك، وقد بلغ منه السرور والبهجة مبلغاً عظيماً. . . وراح يردد (هذا عظيم. . . هذا عظيم!) ولكن العفريت ما لبث أن قال له (انتظر قليلاً فثمة ما هو أعظم من هذا... ترقبهم حتى يُفرغوا في أجوافهم دناً ثالثة. . . فينقلبوا من ذئاب وحشية تتلاطم وتتصافع، إلى خنازير لا تدرك ولا تعي...)

تناول الفلاحون دناً ثالثة. . . فارتفع لجاجهم وعطعطتهم وهم يلغطون كالبهائم التي لا تملك إحساساً ولا شعوراً. فأخذوا يصيحون دون أن يعرفوا سبباً لصياحهم ولا يصغي أحدهم للآخر!

وبدأ الحفل يشرف على منتهاه... وانطلق السكارى فرادى

ومثنى وثلاث. . . تعلو صيحاتهم الحيوانية وصراخهم الوحشي في هدأة الدجى فيمزق سكونه في رهبة تبعث الرعب!.

وهم الفلاح يودع أصدقاءه. . . ولكنه سقط في بركة من الماء الضحل. . فتلطخ جسده وثوبه بالوحل من هامته إلى أخمص قدمه. . فنفلت يلعن ويسب، وهو قابع في مكانه كالخنزير. .

قهقه (إبليس) عالياً. . وعاد يُطري نبوغ تلميذه ثم قال له: (لقد أمكنك أن تصلح خطأك حين أخفيت الخبزعن الفلاح. . وفزت بالنجاح فيما اختبرتك فيه. .

ولكن خبرني كيف يُركب هذا الشراب الساحر. . لابد أنك وضعت فيه خلاصة من دماء الثعالب. . وأضفت إليه دماء الذئاب ثم مزجتها بدم الخنازير. . ذلك ما جعلهم يتماكرون ويتملق بعضهم بعضاً في أول الأمر كالثعالب!. ثم يتضاربون كالذئاب. . ثم يصيحون كالخنازير التي فقدت إحساسها ومشاعرها)

فأجابه الشيطان الصغير: (لا يا سيدي الفاضل!. ليست هذه الطريقة التي اتبعتها في عمل هذا الشراب. . . كل ما فعلته هو أني لحظت أن الفلاح توفرلديه القمح وزاد عن حاجته!.

إن دماء الحيوانات والوحوش كامنة في عروق الإنسان منذ أن فُطر. . فطالما عنده ما كاد يكفي حاجته من الطعام والخبز. . ظلت هذه الدماء ساكنة حبيسة. . ولذا لم يغضب الفلاح حينما سرقت منه كسرة الخبز.!

وحينما توفرلديه القمح وراح يسعى إلى وجوه جديدة يتنعم فيها بهذا الوفر فدللته على متعة عظيمة. . هي الخمر فلما أخذ يقلب فضل الله وخيره عليه. . . إلى هذه الخمر ليتخذها متعة لنفسه، انطلقت دماء الثعالب ودماء الذئاب ودماء الخنازير من سكونها وراحت تعبث بنفسه وتعبث بعقله. . ولو أن الإنسان داوم على الشراب! لظل حيواناً وحشياً طيلة حياته. .

. إن الرغد من أسباب الرذيلة!.).

فامتدح إبليس تلميذه الشيطان الصغيروأثنى على براعته وعفا عما بدر منه سابقاً من ذنوب. . . ورقاه إلى رتبة أعلى في دنيا الشياطين!

obeikandl.com

obeikandl.com

الملك والناسك. . .!

زعموا أن ملكاً من ملوك القرون الغابرة الأولى. قيل له أن الفشل والإخفاق لن يملكا إليه سبيلاً، إذا ما أدرك دواماً خير الأحيان للانطلاق في العمل الذي يروق لباله ويعن لخاطره وإذا ما ألم بأجدر الناس بالإنصات إليهم والإصغاء إلى حديثهم. . . ومن هم أولئك الذين ينبغي عليه أن يجانبهم ويرغب عن مجلسهم!. . . وإذا ما تناهي علمه إلى معرفة أحق الأشياء بالعمل وأخلقها بالتحقيق فأمر الملك رجاله بأن يذيعوا في آفاق مملكته، أن كل من يشير على الملك بخير الأوقات للعمل وأجدر الناس بالإنصات والصحبة وأفضل الأشياء وأحقها بالعناية والرعاية سوف يجازى جزاء حسناً ويحظى بهبة سنية من لدنه. . . وأقبل العلماء وأهل الخبرة والتجربة من كل فج على الملك يتنافسون ويتسابقون يجلون له ما غمض عليه ويجيبونه على ما سألهم إياه. بيد أنهم تباينوا في آرائهم وتعارضوا في أقوالهم واختلفوا في مشورتهم. فقال بعضهم - جواباً على السؤال الأول - أن ليس ثمت سبيل إلى معرفة خير الأحيان إلا بتسطير لوحة تسجل عليها الأيام والأشهر والسنون، ولا يسير المرء في شئون الحياة إلا وفق نظامها. وبهذا ينجلي للمرء أي الأوقات خير من الأخرى وقال بعضهم إن ذلك لا يتأتى إلا بالفطنة واليقظة لما مضى ولما يجد من الأمور. فيتعرف على خيرها وأبلغها أهمية فيبتدره في حينه. وقال فريق منهم إنه مهما توخي الملك الدقة والدقة والبراعة

في معرفة أجل الأوقات، فلن يبلغ مبتغاه. فمن أشق الأمور وأعضلها على الرجل الواحد أن يقرر الخير فيما يتراءى له من الأوقات. . . وعليه أن يعقد مجلساً من أصحاب الحكمة في دولته فيلقى منهم عوناً صادقاً على تحديد الوقت اللائق الموفق.

واختلفت آراؤهم على السؤال الثاني. فأجابه البعض بأن أجدر الناس بالرفقة والإصغاء هم أهل الشورى والحكمة، وقال آخرون بأنهم رجال دين والأطباء. . . بينما رجع البعض أن الجند هم أفضل من يستفيد المرء من قربهم. . . أما عن السؤال الثالث فرأى جمع منهم أن أحق الأشياء بالرعاية هو العلم. . . ومال آخرون إلى إنه الحذق والبراعة في فنون الحرب والقتال. وارتأى بعضهم إنه الفناء في عبادة الله عزوجل وتأدية فروض الدين على أكمل وجه. . .

فلما استبان للملك أنهم لم يستقروا على رأي صائب راجح منع عنهم عطيته. . . وعقد في نفسه عازماً على أن يتوجه إلى ناسك ذاعت شهرته وطبقت حكمته كل أفق بعيد. . . يستلهمه النصيحة ويستوحيه المشورة. . . وكان ذلك الناسك يتعبد في جوف غابة لا يبرحها أبداً. . . ولا يلقى من الناس إلا الفقراء والمعوزين. فأحاط الملك نفسه بثوب بسيط، ليس عليه من ظواهر الملك شيئاً. . . وترجل عن جواده وخلف حرسه على مبعدة وانطلق وحده. . . فلما أدرك الناسك ألقاه يفلح الأرض أما صومعته. . . وحينما أبصره الناسك بادره بالتحية، وأثنى إلى فأسه يضرب بها أديم الأرض. . . فكانت الضربة التي يهوي بها فيقلب الترب تستنفد ما بقى في جسده من قوة، وتجعله يهر من الإعياء وينهج من التعب. . . فقد كان شيخاً ضعيفاً وهنت عظامه ووهت قواه. . .!

فدنا الملك منه وأفصح له عما في نفسه قائلاً: (أيها الناسك

الجليل... لقد أتيت إليك - عن نأي - أروم جوابك عن أسئلة ثلاثة: (أولهما: كيف يتاح لي أن أعلم خير الأوقات لأنجز خير الأعمال؟)، (وثانيهما: أي الناس أولى بالصحبة وأجدر بالاهتمام؟)، (وثالثهما: ما هي الأشياء التي تستوجب مني العناية وتستحق التفرغ لها؟). فأصغى الناسك إليه منصتاً، بيد أنه لم ينبس ببنت شفه جواباً... وبصق في راحتيه وعاد ينبش الأرض بفأسه وهو يفلحها من جديد... فارتفع صوت الملك - وقد لمح ما على الناسك من دلائل الضعف وظواهر الوهن: لقد بلغ التعب والإعياء منك مبلغاً... فناولني الفأس، أتولى عنك الإفلاح حيناً. . .!) فلما هوى الملك بالفأس إلى الأرض مرتين، رفع رأسه إلى الناسك، وسأله ثانية جواباً على ما بسطه له وصارحه به... فلم يتلفظ الناسك بشيء، بل مد ساعده إلى الملك يبتغي الفأس قائلاً: (استرح قليلاً، ودعني أوالي العمل برهة!) ولكن الملك رغب عن أن يعطيه الفأس، وعاد يحتفر الأرض.

تصرمت ساعات اليوم ومال ميزان النهاروتولى الضياء عن صفحة الكون... وراحت الشمس تتوخى سبيلها إلى المغيب في خمرة موردة وراء الأشجار السوامق... فألقى الملك الفأس من يده وهو يقول: (لقد أتيت إليك أيها الناسك الجليل أبتغي جواباً لأسئلتي الثلاثة! فإن كنت لا تود أن تجيبني عليها فخبرني... لأنقل إلى داري!) فقال الناسك وهو يمد طرفة إلى الأفق (ثمة من يعدو! فدعنا نرى من يكون!) فتلفت الملك وراءه... فالتقى طرفه برجل ذي لحية كثة يركض نحوهما!.. وقد أمسك يديه على بطنه، والدم يتفجر خلال أنامله. فلما بلغ مكان الملك هوى أمامه على الأرض وهو يئن ويتأوه في وحدة وألم... وقد تولاه الإغماء... فراح الملك والناسك ينضوان عنه ثيابه... فألقيا في بطنه جرحاً غائراً في الأمعاء..

. أخذ الملك يغسله بالماء. . . ويضمده بمنديله ثم برباط أتاه به الناسك من صومعته. . . بيد أن الدم لم ينقطع سيله، فعاد الملك يغير الرباط الملطخ بالدم بآخر أقتطعه من ثيابه. . . فلما توقف فيضه عن الجريان والترف عاد إلى الرجل الجريح رشده وصوابه وأفاق من غشيته. . . وطلب بعضاً من الماء فوافاه الملك بما سأله إياه. . . وكانت الشمس حينئذ قد هوت كالجمرة خلف الأفق وغابت عن صفحة السماء. . . وشاع البرد في كل مكان. . . فاستعان الملك بالناسك على رفع الرجل وحمله إلى داخل الكوخ حيث استقر في الفراش وأغمض جفونه وراح يغط في وسن هادئ وسبات عميق! وارتمى الملك في ركن من الكوخ وقد أعياه العمل وأضناه العناء والكدح فأغرق هو الآخر في النوم.

حينما استيقظ الملك في صبيحة اليوم التالي، كاد إلا يذكر أين مكانه، ولا يعرف ذلك الرجل الملتحي الذي يقبع في فراشه يحدق فيه ويرنو إليه بعينين نفاذتين. . . قال الرجل - وقد أحس أن الملك بدأ يستعيد وعيه ويفيق من نومه وراح ينظر إليه - (أضرع إليك أن تشملني بعفوك!) فأجابه الملك في رنة عجب: (إني لا أعرف من أنت. . . فعلام ترجو عفوي؟!) - (أنت لا تعرفني بيد أني أعلم من أنت!. فأنا ذلك العدو الذي أقسم غير حانث على أن ينزل بك نقمته وعدوانه جزاء ما أعدمت أخاه وانتهبت داره وشردت أهله. . . فقد تناهى إلى علمي أنك قاصد إلى الناسك. . . فبيت النية وعقدت العزم على أن أنهز هذه البادرة وأقتلك وأنت في سبيل العودة. . .! ولكن اليوم تقضي ولم أستبن لك أثراً. . .! فبرزت من مكمني لأنقب عنك. . .! فلمحني رجالك وتعرفوا علي، وأصابوني بجرح بالغ في بطني. . . لدق أفلت منهم فتلقتني براثن الموت، وكدت أن أسلم الروح لولا أو توليتني بعنايتك فآسيت جراحي وآويتني في هذا الكوخ. .

. لقد كنت متعمداً قتلك فأنقذت حياتي. . . جزيت خير الجزاء. . . والآن لو امتد بي الأجل فوف أقوم على خدمتك - إن رضيت - عامر القلب بالإخلاص لك كعبد من عبيدك الأوفياء. . . وكذلك أبنائي وأهل بيتي فقد قيدت عنق ربهم بمعروف لن ينساه فأسألك أن تعفو عني وتغفرلي!) فاستخف الملك الفرح والبشر وطربت نفسه وطاب قلبه بما رأى من السلم والوفاق الذي عقده مع عدوه في بساطة وهدوء فكسبه صديقاً وفياً. فلم يعف عنه فحسب بل أخبره بأنه سوف يبعث إليه بخيرة أطبائه وخدمه ليقوموا على العناية به ووعده بأن يرد عليه ماله المسلوب ويعيد إليه ملكه المغصوب.

غادر الملك صاحبه الجريح وأخذ يتلفت في ساحة الكوخ باحثاً بعينه عن الناسك ليرجوه من جديد أن يجيبه على أسئلته. فألفاه جاثياً على ركبته يغرس الحب في النقر التي احتفرها البارحة فدنا منه ودعاه قائلاً: (إني أرجوك لآخر مرة أن تجيبني على ما سألتك إياه. . . أيها الحكيم الجليل). . . فأجابه الناسك وهو ما يزال جاثياً على ساقيه الرقيقتين (لقد أجبت على ما تود!!) فتساءل الملك في دهش وعجب (كيف أجبت!؟ وما الذي تعنيه) فرفع إليه الناسك رأسه وعلا ثغره ابتسامة، وقال في صوت شاع في الهدوء والرزانة: (ألم تر أنك لو لم تترفق بي وترحم ضعفي بالأمس ولم تهئ لي هذه الحفيرات بل انطلقت في سبيلك لهاجمك ذلك الرجل وبلغ منك مقتلاً. . . وحينئذ كنت تقعد نادماً تأكل قلبك الحسرة وتتمنى لو أنك مكثت لا تبرحني. إن خير وقت كان في ذلك الحين الذي كنت تحتفر فيه الأرض. . . وكنت أنا أولى الناس باهتمامك ورعايتك. . . وكان أفضل عمل أديته هو الإحسان إلى. .! وبعد حين أتانا ذلك الرجل يسعى راكضاً. . . فكان أدق وقت هو ذلك الذي توليته فيه بعنايتك وحدبك. . . إذ لو إنك

رغبت عن معونته لقضى دون أن تحظى منه بسلام وحمد ولذا كان هو أجدر الناس وأحقهم بالاهتمام والعطف وكان ما أديته له من معروف من أروع أعمالك وأجمل فعالك. فأعلم إذن لأن ليس ثم إلا وقت واحد يستحق منك الاهتمام ذلك هو (الآن) الذي تكون فيه. . . فهو الآونة الوحيدة التي تتملك فيها قوتك وقدرتك، وأحق الناس بأن تعنى به هو من يكون معك فأنت لا تدري إذا كنت تعامل غيره بعد ذلك أو يكون هو آخر من تعامل! وأجل الأشياء وأعظمها شأناً هو أن تبادر بالخير والمعروف إلى غيرك فلهذه الغاية السامية فطر الإنسان في هذا الكون.

obeikandl.com

إلياس

يحكى أنه كان يعيش في بلدة واحد من البشاكرة يدعى (إلياس)... قضى أبوه نحبه بعد أن متع ناظريه بزوجة ولده - دون أن يخلف له شيئاً من الأرض يأتي له بريع من الرزق يعيش هو وامرأته عليه. فلم يدع له سوى سبعة من الخيول والأفراس وبقرتين وعشرين رأساً من الغنم...

فشمر إلياس عن ساعد الجد... وكان ماهراً في رعاية الحيوان بارعاً في تربيته ذا جلد ومثابرة، فراح يتولى ماشيته بعنايته، ويهيئ لها من المرعى والمأوى كل ما يدخل في طوقه...

وكان - هو وزوجته - يعملان سحابة يومهما وجنحاً من ليلهما... ينهضان على تبكير من الغسق... وهما آخر من يأوي إلى مضجعه في العشي. وأقاما على تلك الحال حتى بارك الله في ماشيتهما، وضاعفها. فزادت وتكاثرت عاماً أثر عام، وأتيح لهما وفر فيما يملكان من ثروة ومال...

وحينما وافت السنة الخامسة بعد الثلاثين على تمها صار لإلياس من الخيول مائتان، ومن البقر مائة وخمسون ومن الغنم ألف ومائتان... فأستأجر رجال يحملون عنه عِبءَ الرعي ويقومون على معونته... واتى بأجيرات من النساء يحلبن له ماشيته ويخضون ألبانها ويستخلصون منها الزبد والسمن والجبن (والكميس)

فأيسر (إلياس)... وأخصب جانبه وأرغد عيشه، وراح يعيش في بلهنية ودعة... فعظم مقامه بين جيرته، وذاع شأنه

بين من يقنطون في واديه. وأخذ كل امرئ يغبطه ويتحدث عنه - وفي نفسه حسد - (إن إلياس رجل بخيت ذو جد جلب عليه كل ما يراود أمل الإنسان من رغبات... فهو - دون ريب - سعيد بهذه الدنيا هانئ بها.

تقاطرت على (إلياس) جموع الزوار من كل حدب... فكان يتلقى كل واحد منهم بالترحيب والتكريم، وينحر لهم الخراف ويهيئ لهم موائد حافلة باللذيذ الفخر من الطعام والشراب ويقدم له ما راق لهم من (الكميس) والشاي...

كان لإلياس ولدان وبنات زوجهم جميعاً... وحينما كان في أيام فقره وعسره كان هؤلاء الأبناء عوناً لأبيهم في رعاية قطعانه وحتى إذا ما زخرت خزائنه بالمال سرت إلى نفوسهم عوامل الفساد والتلف. فأقبل واحد منهم على الخمر يعب كؤوسها حتى يضل منه الوعي ويحمل مخمورا إلى داره. ولم يلبث أن قتل في عراك بين أبناء الحي من ذوي النفوس الشريرة.

أما الآخر فقد تزوج بامرأة رقيعة خرقاء، جعلت تسعى بالباطل بين الولد وأبيه حتى أوغرت نفسيهما وأضغنت قلبيهما. فافترقا بعد أن تخلى (إلياس) لأبنه عن جواد وقطيع من الغنم لم ينقض حين على ذلك حتى تفشى المرض بين الماشية، فأورد كثيرا منها مورد الهلاك والفناء... وساء الحصاد في هذا العام ولم تأت الأرض إلا باليسير... فحصد الموت بعض ما تبقى من الجوع. ثم أغارت قبائل (القرغيز) على أملاك (إلياس) فاستحوذت على البقية الباقية من حيواناته...

وبين ليلة وضحاها أصبح إلياس، فإذا بأمواله قد عبثت بها يد الزمان، وأدبرت عنه الدنيا وهي ساخرة في حين ضعف فيه جسده ووهنت قواه... فباع أثاث داره ثم لم يلبث أن باعها هي الأخرى.

وبات هووزوجته - وكانت تدعى (شام شماجي) - على الطوى

وليس لهما من موئل يأويان إليه، فقد رحل ولدهما وزوجته عن البلدة، وماتت ابنتهما منذ زمن بعيد. فلم يجد الزوجان إلى جانبهما في خريف العمر من يسعى عليهما بالقوت...

وكان لهما جار يدعى (محمد شاه) ليس بالغني وليس بالفقير بل يحيا حياة ذات رخاء ويسر... فعطف عليهما ورحم كبرهما إذ كان ذا قلب يفيض بالحب وعروق تنبض بالرحمة. فطاف بعقله ما كان عيه (إلياس) من كرم وجود. فقال له:-

تعال وأقم معي يا إلياس أنت وزوجك العجوز... وما عليك سوى أن تفلح حديقة البطيخ في الصيف، وفي الشتاء تطعم الماشية وترعاها... إذا وسع مقدورك هذا!! أما زوجتك الفاضلة (شام شماجي) فسوف تجلب الأفراس وتستخرج لنا من ألبانها (كميساً) طيب المذاق بديع الصنع.

وسأهيئ لكما من الملبس والطعام ما تقر به عيونكما وترومانه فإن أعوزتك حاجة بعد ذلك فخبرني بأمرها، وإني لأعدك بأن أتيحها لك ما وجدت إلى ذلك سبيلاً...

أقبل (إلياس) وامرأته على العمل في خدمة جارهما. ولعلهما صادفا في أول الأمر صعوبة، وشقت عليهما الخدمة. بيد أنهما لم يمكثا غير قليل حتى تعودا على ذلك، واستقر بهما المقام عنده يعملان له ما يسعهما...

وكان يتسرب الألم والرثاء إلى قلب (محمد شاه) حينما يبصر بهما بعد غناهما العريض وعلة منزلتهما، ينحدر إلى مثل هذه الحال. لقد حرز في نفسه هذا ولكنه أفاد منهما إذا أطلق لهما حرية الأمر، فلم يسعهما سوى أن يتفانيا في خدمته بإخلاص وجد.

وذات يوم نزل في ضيافة (محمد شاه) نفر من ذوي قرابته وصديق له من رجال البحر فذبح (إلياس) لهم شاة وسلخها وبعد أن أنضجها على النار، بعث بها إلى الأضياف فأكلوا منها

ما طاب لأنفسهم. . .

وبينما هم قعود على البسط الثمينة يتناقلون الحديث ويرشفون كؤس ا (لكميس) مربهم إلياس - وقد فرغ من عمله - فلما أبصر (محمد شاه) قال لواحد من أضيافه: (هل لمح طرفك هذا الرجل الذي مربنا منذ لحظات؟!)

فأجابه الضيف في عجب: (أجل.! فما الذي يدعو إلى سؤالك هذا؟!)

- (لقد كان أغنى إنسان في هذه الناحية من الأرض!. إنه يدعى الياس. أما سمعت بذلك الاسم من قبل؟!)

- (لقد طرقت سمعي أخبار عنه مؤكداً. . إني لم أره قبل الآن ولكن شهرته ذاعت كل البقاع!.)

- (هذا حق. . بيد أنه الآن صفر اليدين ذو مترية وعسر. فهو يقيم معي هنا يعمل في أرضي ويرعى أغنامي، أما زوجته فتحلب ماشيتي وأفراسي!. .)

فأدرك الدهش ذلك الضيف ومط شفيتيه وهزرأسه وهو يقول: (الأيام دول من سره زمن

ساءته أزمان. فبين عشية وضحاها يصير المرء من أعلى عليين إلى أسفل سافلين!

هل ترى المصيبة تقض مضجع هذا المسكين وتجعله يندب حظه على ما ضاع من بين يديه؟!)

- (ومن يدريك؟! إنه يعيش في هدوء وسكينة يحسن القيام بعمله) فعاد الضيف يقول: (بودي أن أتحدث إليه حيناً هو وزوجته، أفيمكنني هذا؟)

- (ولم لا؟!) وراح السيد ينادي على إلياس: (يا أبت. هيا اشرب معنا قدحاً من الكميس. وادع زوجتك إلى هنا كذلك.)

فدلف إلياس مع زوجته إلى الحجرة. . . وبعد أن ألقى تحيته على الأضياف جلس على قرب من الباب، وراح يتمتم

بصلات خفية في صوت خفيف. . . أما زوجته فتجاوزت المكان إلى ستر في ركن منه حيث جلست خلفه مع سيدتها. . .

وقدم (محمد شاه) إلى إلياس قدحاً من أقداح (الكميس) فتناوله ولسانه يلهج بعبارات الشكر والحمد، وبعد أن تمنى للحاضرين صحة وعافية راح يترشفه على مهل، ثم وضعه جانباً. فقال له الضيف الذي كان يروم رؤيته. (حسن يا أبتاه. أحسب إن حديثنا سوف يثير في نفسك لواعج الحزن والأسف ويبعث في نفسك ذكرى ما كنت تتملكه من دور وضياع ومواش ذهبت هباء مع الريح. . لعلك آسف وضيق النفس بما أنت فيه الآن!

فوضحت على ثغر إلياس ابتسامة هادئة وقال في صوت رزين (لو إني أخبرتك ما هي السعادة، وما هي عثرة الحظ. . . لأثار ذلك دوافع الشك لديك في نفسك!. فيحسن بك إذن أن تسأل زوجتي. فكل ما في قلوب النساء يجري طلقاً على ألسنتهن. . . ولسوف تنبئك عن بينة بجلية الأمر!. .)

فاستدار الضيف نحو الستار. . وهو يقول: (هلا تخبرينا يا جدتي العجوز. . . كيف أن سعادتكم السابقة تقرن بما يكتنفكم الآن من بؤس وشقاء؟؟)

فأرتفع صوت (شام شماجي) من خلف الستار: هذا ما يدور بخلدي! لقد عشت أنا وزوجي العجوز خمسين عاماً نسعى في سبيل السعادة وننقب عنها، فلم ندرك لها أثراً. . . ولكنها الآن في هاتين السنتين الأخيرتين - منذ أن ودعنا الغنى ورفعة الشأن، وأصبحنا نعمل كأجيرين بلغنا السعادة وعرفناها على حقيقتها وصرنا ننعم بها كل صباح ومساء. . . فلسنا نبغي أسعد من أيامنا هذه!.)

فرانت الدهشة والعجب على وجوه الأضياف وكذلك صاحب الدار الذي قام فحسر الستار عن مكان المرأة العجوز

وهي جالسة، وقد عقدت يديها على صدرها وراحت تتبسم لزوجها فابتسم هو الآخر لها.

وبعد أن مضت برهة من الصمت تعلقت فيها الأنفاس عادت تقول في صوتا الهادئ: (غني لا أحدثكم بغير الحقيقة. . . وما في قولي من مبالغة بل هو الحق الخالص. . . لقد أبلينا ربع قرن من الزمن ونحن نسعى إلى السعادة. . . وعلى قدر ما كنا أغنياء كانت محرمة علينا. أما الآن وقد صرنا أجيرين لا نملك من متاع الدنيا شيئاً أحسسنا بالسعادة التي لا نود بديلاً منها. . .)

فقال لها ذلك الضيف متسائلاً: (بالله خبرينا ما هذه السعادة التي تشملك أنت وزوجك في إعساركما بعد اليسر وادبار الدنيا عنكما بعد إقبالها عليكما؟!)

- (أصبت!. حينما كنا أغنياء كان لدينا من المشاغل ما يصرفنا عن إئتناس الزوج بزوجته وتآلف روحينا. وعبادة الله عزوجل. . . لقد كان الناس يفدون علينا فنسهر على خدمتهم وتوفير ما يثلج قلوبهم خشية أن تتناولنا ألسنتهم بالسوء ويتحدثون عنا بما نكره. . . فإذا ما رحلوا كان علينا أن نراقب عمالنا ومن يقومون على خدمتنا حتى لا تنزع بهم دوافع الشر إلى خيانتنا فيما نعهد به إليهم. . .

كما أننا كنا نحاول أن ننقص أجورهم ونفيد منهم أكثر مما نستحق. فارتكبنا الخطيئة الأولى.

ثم إننا كنا - إذا ما جن الليل - نبيت ونحن أيقاظ خشية أن تفترس الذئاب الوحوش بعض الأغنام أو يعمد فريق من اللصوص إلى سرقتها في غفلة من حراسها. وننهض بين حين وآخر لنطمئن عليها. . . وغير ذلك مما كان ينشأ من المشاكل، ثم أضف إلى ذلك ما كان ينشب بيني وبين زوجي من شجار ونزاع. . . فهو يريد شيئاً وأنا أود ما هو ضده فنخطئ ثانية. . .

وهكذا كنا لا نكاد نتجاوز صعوبة حتى نقابل أخرى. . . ونستدبر خطيئة حتى نواجه ثانية فعشنا لا نجد إلى السعادة سبيلا!)

- (حسن. . والآن.)

- (الآن حينما. . أفيق أنا وزوجي (العزيز) في الصباح بعد نوم هادئ مطمئن لا ينغصه الخوف ولا الفزع. . نتبادل كلمات الحب وعبارات الود. . . وبدأنا نحيا في هدوء وسلام لا تعكر صفوة تلك الأسباب التي كانت تثير النزاع والشقاق بيننا.

ليس علينا من واجب سوى خدمة ذلك السيد الكريم الذي أحسن إلينا. . . فنحن نتفانى في العمل لصالحه. . . حتى لا يحس في وجودنا مضرة به أو ثقلاً عليه. . . ونتناول غداءنا هنيئاً مع أكواب (الكميس). . . وقد توفرت لدينا الأخشاب التي نطعمها النار ونستمتع بدفئها إذا ما اشتدت وطأة البرد ويأتينا سيدنا بالثياب ذات الفراء التي تعوزنا.

أما الوقت فقد بتنا نجد فيه ما يتسع لحديث كل منا إلى الأخر في ود. . و. . غزل. . فنفكر في أنفسنا ونتعبد متقربين إلى الله نسأله الصفح والغفران عما ارتكبناه من الخطيئات. . نعم لقد سعينا خمسين عاماً في سبيل السعادة فلم نجدها إلا الآن!.)

فضحك الأضياف. . ولكن إلياس ما لبث أن قال لهم في صوت ذي جرس هادئ وإن شاعت فيه رنة العتاب:

(ليس ثمة مجال للضحك!. أيها الرفاق. . فليس هذا الحديث مثاراً للضحك والهزل. . بل عبرة وعظة. . إنها حقيقة الحياة. . لم ندركها إلا حينما توج رأسانا المشيب. .

لقد كنا نحن كذلك سخفاء وحمقى حينما بكينا طويلاً على ما ضاع من ثروة وعلو شأن. . . ولكن الله - تعالت قدرته هدانا الآن إلى الحقيقة. . فما أجملها وما أجلها. .

إنا لا نذكر هذه الحقيقة لكم ابتغاء السلوى والعزاء لنا ولكن نجلوها على أسماعكم لهدايتكم وخيركم!.)

فقال (الملاح) وقد اغرورقت عيناه بالدموع: (إنك لعلى حق يا إلياس. . إنه حديث الحكمة والموعظة. . وقد جاء ذكره في الكتب المقدسة التي نزلها الله ليهدي بها عباده. .)

وأمسك الأضياف عن الضحك. واستغرقوا في فكر عميق.

obeikandl.com

العمل والموت والمرض[3]

إنها الأسطورة من تلك الأساطير التي يؤمن بها (هنود جنود أمريكا)... ويتناقلوها خلفاً عن سلف!.

حينما فطر الله البشر - كما يقولون - جعل الإنسان في غير حاجة للعمل والسعي!. فما تعوزه داريؤوي إليها ولا ثياب يلقيها على جسده يتقي بها لفحة الحرونفحة القر... بل ما كانت تضطرب في نفسه رغبة إلى طعام ولا شراب!. فامتدت بهم الحياة مئات من السنين.. لا يعرف المرض إليهم سبيلا..

فلما تجلي (الله) تعالى على الكون - بعد أن تصرمت حقب ودهور - لينظر خلقه كيف يعيشون.. ألفاهم - وقد حسب أن السعادة ضاربة بينهم إطنابها - يتشاجرون ويتضاربون. وراح كل منهم يعني بنفسه دون رعاية لأخيه.. فساءت حالهم وفسدت دنياهم وحاق الشر بهم...

3- هذه قصة الإنسانية من قديم الأزل. . وقصة البشرية منذ فجر التاريخ. . . تتجلى لنا فيها النوازع التي تضطرب بين انفس البشر، والعواطف التي تمور في قلوبهم، والنزوات التي تختلج في أفئدتهم. . . تناولها تولستوي ببراعته البارعة الملهمة، وعقله الفذ الجبار - وقد راعه ما بلغته حال العالم من شر وفساد - فتلمس بين تجاربه البعيدة في الحياة، ودراسته العميقة للنفوس وحياً طريفاً صاغ منه القصة الرائعة. . . التي تتمثل فيها - على بساطتها - الدعوة إلى (الحب والخير) وهي دعوة طالما نادي بها تولستوي. بل ظل ينادي بها حتى أدركته منيته وقد بلغ الثمانين

فحدث (الله) نفسه، وهو يتدبر صلاحية لهذه الحال: (إن الذي أوردهم هذا المصير تفرقهم، وعيش كل منهم على حدة!) فهيا الله أمور الحياة، وجعل من المستحيل على الإنسان أن يحيا دون أن يجد ويعمل!

فسخر عليهم الحر والبرد حتى يسعوا في طلب الملبس وبناء المسكن!. وسلط عليهم الجوع حتى يفلحوا الأرض ويبرزوها ما ركزت فيها الطبيعة من خيرات ورزق ويخرجوا منها الثمرات فيتخذوا فيها غذاء لهم. . .

وانثنى (الله) يفكر: (إن العمل سوف يوحد بينهم ويجمع شملهم، فلن يستطيعوا كل منهم أن يعتمد على نفسه في صنع آلته وحمل أخشابه وبناء داره وغرس حقله وجني محصوله ونسج ثيابه بعد غزلها. . . وتهيئة طعامه!. أن ذلك سوف يجعلهم يدركون إنه ما دام الإخلاص سيدهم والود رائدهم في تعاونهم على العمل!. فسيضاعف الله ما يأتيهم به من الخير والنعم. ويعيشون في رغد وبلهنية. . . سوف يزيد ذلك من وحدتهم وتضامنهم في الحياة!. . .)

دارت عجلة الزمن، وتقضت الدهور سراعاً بعضها أثر بعض. . . وعاد (الله) يقلب النظر في صارت إليه حال الخلق. . . ويري أن كانوا في عيشتهم سعداء أم ما برح الشقاء ينغص حياتهم. . . فوجدهم في حال اشد سوء مما كانوا عليه. . . فقد أقاموا يعملون معا - كما أرادهم (الله) فليس لهم من سبيل في الحياة غير ذلك - بيد أنهم تفرقوا شيعاً وأحزاباً وانقسموا على أنفسهم جماعات تحاول كل منها أن تحرم غيرها من العمل وتعوقها عنه حتى تنفرد به وحدها!.

فراحوا يهدرون أوقاتهم في نزاع لا نفع فيه وينهكون قواهم في صراع لا طائل منه. . فاضطربت أمورهم واختلت حالهم!. .

فلما رأي (الله) ذلك السوء الذي انحدرت إليه حال الخلق

عزم على أن يهيئ أمور الحياة بحيث أن المرء لا يلم بالحين الذي توافيه منيته فيه. فيفاجئه الموت على غرة منه في أية لحظة. ثم أوحي بذلك إلى الخلق. . وقال يحدث نفسه:

(إذا علم كل منهم أن الموت سوف يخترمه في أي حين. . داخلت قلبه الخشية، وأشفق أن يضيع ساعات العمر في شغب وعراك لا يرتد بفائدة عليه!.)

فلما آب (الله) - بعد أن طويت صفحات كثيرة من الزمن - ليراجع النظر في أمور الخلق، وكيف يعيشون. . ساءه أن يري الشر قد اتسعت هوته وأستفحل شأنه! فقد أفاد هؤلاء الذين وهبتهم الطبيعة قوة جبروتاً من الحقيقة الأبدية التي سنها الله للبشر، إلا وهي أن الإنسان عرضة للموت في أي حين. فسخروا أولئك الضعفاء وسلطوا عليهم نقمتهم، فقتلوا منهم كثيرين وراحوا يهددون الآخرين بالموت. .

اصبح هؤلاء الأقوياء ينعمون وذريتهم دون أن يعلموا شيئاً. . ثم ما لبثت السآمة إلى نفوسهم من البطالة والعطل أما أولئك الضعفاء فلا يبرحون يعملون فوق طوقهم ويتلمسون شيئاً من الراحة فلا يدونها ويتنسمون ريح السكينة فلا يصادفونها. . .

فأخذ كل فريق يضج بالشكوى ويحمل ألوانا من البغضاء وصنوفا من الحقد للفريق الآخر. . فازدادت الحياة سوء على سوء وتتابع الشقاء شرا أثر شر!.

فلما أحاط (الله) علما بما حاق بالخلق، عقد العزم على أن يراب الصدع ويقيم الأود. . فأخذ يتلمس وسيلة أخرى لذلك. . فلم يلبث أن سلط عليهم الأمراض والعلل. . وجعلها تشيع بين الناس فلا تذر واحداً منهم!. .

وظن (الله) أن البشر إذا ما أعتقد كل منهم إنه عرضة لأن يخر صريع المرض ضجيع الفراش، فلسوف يدركون ما على

الأصحاء من واجب الرحمة والعطف، ومد يد المعاونة إلى من برحت بهم العلة وأشتد عليهم السقم!. وحينئذ يلقون من جانب الآخرين شفقة ورحمة وعوناً.! ومضي (الله)!

حتى إذا عاد لينظر حال الخلق، وقد تفشى بينهم المرض. . رأى أن السوء قد أستفحل أمره واستشرى شره. . فامرض - وقد ظنه (الله) جامعاً لهم موحداً بينهم - أدى إلى تفرقهم وتنافر بعضهم. .

فأولئك الأقوياء الذين يسخرون غيرهم من الضعفاء في العمل اضطروهم أيضاً إلى رعايتهم والعناية بهم حينما تنشب فيهم العلة أظفارها!. . بيد أنهم لا يسعون إلى معاونة الضعفاء إذا ما مرضوا بل يبالغوا في إرهاقهم، فلا يتيحون لهم فترة من الراحة للعلاج والشفاء!.

وجعلوا لهم بيوتاً حقيرة في عزلة عنهم، يعاني فيها هؤلاء الضعفاء سكرات الموت، ويلفظون بين جدرانها أنفاسهم الأخيرة بعيداً عن القوم المنعمين، حتى لا يكدر منظر هذه المجموع التعسة الشقية - وقد أصابها المرض - متعة الأثرياء وبهجتهم!. . . وحتى لا تتسلل إلى أجسادهم العدوى من هؤلاء المرضي المكروبين. .

فقال (الإله) يحدث نفسه - وقد نفض يديه من أمور الخلق (إن كانت هذه طرائق والأسباب لا تجعل من البشر من يفطن إلى مستقر سعادته. . فلندعهم يدركونها من بعدد ما يعنون منها ما يعانون!.)

وخلى الله بين الناس وبين أنفسهم!.

عاش الناس حقباً طوالاً في بلاء مع أنفسهم، قبل أن يدركوا إنه ينبغي عليهم أن يكونوا جميعاً سعداء. . .

ففي القرون الأخيرة تجلي الخلق عن فئة من البشر. .

يعلمون حق العلم إنه يجب إلا يكون العمل كشبح مخيف

لبعض الناس، وكغنيمة خالصة للبعض الآخر... بل يجب أن يكون مدعاة للتعاون لصالحهم، ومبعثاً لخيرهم وأسعادهم، وسبيلاً لوحدتهم وتضامنهم!..

ويعلمون أن الموت، وهو سيف مسلط على قارب العباد في غير ميعاد!.. لا يلائمه إلا العمل الحكيم، فواجب كل إنسان أن يستفيد من سنوات حياته وأيامها وساعاتها بل ولحظاتها التي يوهب إياها.. فيبذلها في الخير والحب والتأليف بين القلوب!

ويعرفون أيضاً أن المرض - بدلا من أن يكون سبباً للتفرقة وأداة للتنافر بين الناس - يجب - على الضد من ذلك أن يؤدي إلى تهيئة المجال للمحبة والمودة، والتعاطف والإيناس...

obeikandl.com

obeikandl.com

حبة من القمح كبيضة الدجاج!

بينما الصبية في لهوهم يعبثون ذات يوم. . . عثر أحدهم في ثلمة في الأرض على شئ عجيب فيه مشابه من حبة القمح. . بيد أنه كبير في حجمه حتى كاد أن يداني بيضة الدجاجة!!.

ومر بهم - وقد استخفهم المرح وتملكهم الفرح بلقيتهم - مسافر من جوّابي البقاع. . فلما أبصر ذلك الشيء بين أناملهم، عوضهم عنه بفلس وحمله معه إلى المدينة. . حيث باعه للملك بمال كثير كعجيبة من العجائب التي تمخض عنها الزمن. . .

فدعا الملك إلى مجلسه أهل العلم وأولي الحكمة وأرادهم أن يأتوه بحقيقة ذلك الشيء. . . فانثنى العلماء إلى كتبهم يتفحصونها، وانقلب الحكماء إلى عقولهم يستحثونها. ولكنهم لم يحيروا لهذا الشيء معرفة لماهيته وإدراكاً لحقيقته!. . حتى كان اليوم الذي طارت فيه دجاجة إلى عتبة النافذة حيث ترك ذلك الشيء العجيب عليها. . فراحت تضرب فيه بمنقارها حتى خلفت ثقباً في جانب منه!. ويومها أدرك العلماء أن ذلك الشيء ليس إلا حبة من القمح!.

فلما حملوا إلى الملك ذلك النبأ. . اشتدت حيرته وتزايد عجبه وأمرهم بالبحث في أي يحن من الزمن وفي أي بقعة من الأرض. كان الناس يزرعون مثل هذا القمح!

فعاد العلماء إلى كتبهم يقلبونها وانثنى أهل الحكمة إلى عقولهم يتروون من جديد. . ولكنهم باءوا بمثل ما كان نصيبهم في المرة الأولى!. فذهب إلى الملك وفد منهم. . وقال له:

- ليس في قدرتنا الإجابة على ما تطلبه مولانا.! فما حوت كتبنا نبأ عنه. . ولا انتهت عقولنا إلى فهم له. . ولكن في مكنة مولانا أن يسأل الفلاحين لعل بعضهم يعلم عن آبائه. . في أي حين وفي أي بقعة كان القمح يزرع في مثل هذا الحجم.!.)

فأمر الملك أن ينبعث أعوانه في أرجاء البلاد وينتشروا في مختلف ربوعها. ويأتوه ببعض الفلاحين الذين بلغوا من العمر عتياً.

فلم يلبثوا بعد حين أن فازوا ببغيتهم. . فأحضروا إلى الملك رجل تقدمت به السنين فأحنى ظهره ثقلها. . فراح يتوكأ على دعامتين معروق الوجه، شاحب اللون مهدل العارضين مغضن البشرة. .

فناوله الملك حبة القمح. . . بيد أن كفافة بصره قصرت به عن رؤيتها. . . فراح يتحسسها بين أنامله الجاسية. فسأله الملك:

(هل لك في أن تخبرنا. . . أيها العجوز عن المكان الذي كان يزرع فيه مثل هذه القمحة؟! ونبئنا إن كنت قد اشتريت أو زرعت شيئاً مثلها في حقولك؟!. . .)

كان بسمع الشيخ وقر جعله عاجزاً عن الإصغاء إلى ما قاله الملك. . . بيد أنه لم يلبث أن أدركه في مشقة وجهد. فقال بعد أن مكث حيناً لا ينبس:

- (كلا. . . إني لم أزرع ولم أحصد مثلها قط في حقلي. كما أني لم أشتر أبداً شيئاً يشبهها. . . وحينما كنا نتبايع القمح كانت حبوبه صغيرة في مثل حجمها اليوم. . . غير أنه يجمل بك أن تسأل أبي لعله سمعه قد وعى عن الفج الذي كانت تزرع فيه!)

فبعث الملك برجاله في طلب والد الشيخ. . . فعادوا به وهو يمشي معتمداً على عصا غليظة. . . فلما ناوله الملك حبة القمح. . . قلبها بين يديه، وراح يمعن فيها النظر، وقد عجز

الكبر عن أن يذهب بحدته!. . . فسأله الملك: (أما في قدرتك أيها العجوز أن تخبرنا عن المكان الذي كان يزرع فيه مثل هذه القمحة؟! وهلا أنبأتنا إن كنت قد اشتريت أو زرعت مثلها في حقولك؟)

لم يذهب الثقل بمسمع الشيخ، بل ما زال سمعه خيراً من سمع ولده. . فأجاب الملك في صوت هادئ رزين:

- (كلا!. إني لم أزرع ولم أحصد مثلها في حقلي!. . كما أني لم أشترشيئاً يشبهها!. فما كان للنقود تداول في أيامنا. . فكان كل امئ يزرع قمحة. . . وما زاد عن حاجته يهبه من في عوز!.

لست أدري أين كان يزرع مثل هذا القمح. . . ولكنني أعتقد أن القمح في عهدنا كان أكبر حجماً وأكثر دقيقاً منه في أيامنا هذه. . . بيد أنه - مع ذلك - لم يبلغ حجم هذه القمحة. وأحسبك واجداً عند أبي فائدة وعلماً عنها! فسله)

فأرسل الملك من يأتي بوالد الشيخ. . فغابوا حيناً، ثم عادوا به إلى حضرة الملك!. . يسعى في سيره في خفة ونشاط له بصر ثاقب وسمع مرهف. . . ولسان ينطق في جلاء!. .

فلما مد الملك له يداً بحبة القمح. . . تناولها منه. . . وراح يقلبها في راحتيه. . . ويمعن فيها النظر. . ثم لم يلبث أن ارتفع صوته في هدوء (لم أر مثل هذه القمحة إلا منذ زمن سحيق. . سحيق جداً!.) وقضم شطراً من الحبة بثناياه، وأخذ يتذوقها بفمه!! واستطرد في قوله:

- (إنها نفس النوع!. . .) فسأله الملك:

- (ألا حدثنا أيها الجد الوقور. . . في أي مكان وفي أي زمان، كان الناس يزرعون هذا القمح. . . وهلا خبرتنا إن كنت قد ابتعت أوزرعت مثلها في حقولك؟!. .)

فأجابه الشيخ:-

. . . كان هذا القمح يزرع في كل البقاع في أيامي لقد طعمته

في شبابي، وأطعمت غيري منه!. وطالما زرعناه في أراضينا. . وحصدناه. . . ودرسناه!!.)

فقال الملك وقد استبد به العجب وتملكه الفضول: -

(هل كنت تبتاعه؟! أم كنت تزرعه بيديك؟!)

فتريث الشيخ حيناً. . . كأنه يسبر غور الماضي، ويستعيد ذكراه - وقد ضرب النسيان عليها سجنه وأرخى دونها سندوله - ثم أجابه: (لم يكن ثمت واحد. . في أيامي. . يجسر على أن يأتي هذه الخطيئة. . أن يبيع أو يشتري الخبز. . ولم نكن ندري شيئاً عن هذه النقود التي تتداولونها الآن. . فكان لكل امرئ كفايته من القمح والزاد!.)

- بالله خبرني أين توجد أراضيك حيث كنت تزرع فيها ذلك القمح؟!.)

فتبسم الشيخ وأجابه في هدوء:

- (كان حقلي هو (أرض الله) الواسعة. . . أينما زرعت وحيثما غرست فهذا حقلي. . . فكانت الأرض مباحة طليقة بين الناس! وما كنت تجد واحداً يجرؤ على القول بأن هذه الأرض ملكه. . بل العمل هو وحده الذي كان ملكاً للناس):

- (هلا أجبتني أيها الجد الكريم. . إلى سؤالين آخرين؟ أولهما: لماذا كانت الأرض تنبت مثل هذا القمح، ثم لماذا كفت عن إخراجه الآن؟!!. .

وثانيهما: ما العلة في أن حفيدك لا يخطو إلا على دعامتين وابنك يتوكأ على عصا واحدة. أما أنت فلا تعتد على شئ؟! وما الذي جعلك ذا بصر ثاقب وسمع مرهف وصوت واضح جلي تهفو الأذن لسماعه؟!)

فهز الشيخ رأسه، وما زالت البسمة مرتسمة على شفتيه وقال:

- (لقد صار الأمر إلى هذا الحال. . لأن الناس كفوا عن

العيش بما تعمله أيديهم، وراحوا يسخرون غيرهم لعمل ما تعوزهم الحاجة إليه!.

في أيامنا الخوالي. . كان الناس يعيشون حسب ما سنته لهم شريعة (الله). . (العامل بعمله)!. فلم تملأ الضغائن نفوسهم ولم تفسد الأحقاد قلوبهم. . ولم يكن بينهم من ينظر بعين الحسد إلى ما متع الله به بعضاً منهم!. .)

obeikandl.com

obeikandl.com

الخوخ

لما فرغ القروي (تيكوكوزميت) من جولته في المدينة، قفل راجعاً إلى منزله يحمل في إحدى يديه صرة صغيرة. فلما بلغ إلى صحن الدار نادى أولاده ثم قال لهم:

- انظروا يا أطفال ماذا بعث العم (إفريم) إليكم.!

فهرول الصغار إليه ثم توسطوه، بينما كان - هو - منصرفاً إلى فض الصرة لإخراج محتوياتها؛ فلما تم له ذلك، صاح (فانياُ) - وهو طفل صغير في نحو السادسة من عمره:

- تأملي يا أمي التفاح الجميل، كم هو رائع في احمراره!

فعقب (سيرج) - الابن الأكبر - على الفور:

-. . . بعيد عن الظن أن يكون هذا تفاحاً يا (فانيا)؛ جرب أن تتحسس ملمسه. . . ألا ترى له أثر ملمس زغب الدجاج في يدك! عندئذ قال الأب:

- إنه ليس تفاحاً يا ولدي. . . إنه فاكهة تسمى (الخوخ) أعتقد أنه لم يسبق لكم أن رأيتموها من قبل! إليك يا امرأة أكبر الخوخات؛ أما هذه الأربع، فأنها لكم يا أولادي!

وفي المساء، سأل (تيكو) أبناءه جميعاً كيف وجدوا الفاكهة الجديدة فأجاب (سيرج)، الابن الأكبر:

- لقد وجدتها سائغة المذاق جداً يا أبت، حتى لقد أزمعت غرس نواتها في آنية، لعلها أن تنمو وتثمر يوماً. . . وتصبح شجرة خوخ جميلة، تدر علي - في سخاء - مثل هذه الخوخات المستحبات! فتبسم الأب ثم قال:

- ربما كنت (يا سيرج) في قابل أيامك زرعاً كبيراً!

وقال الصغير (فانيا): أما أنا يا أبت، فقد وجدتها بالغة اللذة، فارطة الحلاوة، حتى لقد طلبت إلى أمي أن تعطيني نصف خوختها! أما النواة، فقد ألقيت بها! فهز الوالد رأسه ثم قال:

- إنك ما زلت بعد غريرا يا صغيري!

وقال الأبن الثاني فازيلي):

-. . . لما ألقى (فانيا) بالنواة. . . سارعت فالتقطتها، وقد وجدتها شديدة الصلابة، ولكنني

لم أيأس. . . وعالجت كسرها حتى أفلحت في ذلك أخيراً، وكم كان اغتباطي عظيماً يا والدي، إذ ألقيت داخلها لوزة لها مذاق البندقة! أما خوختي، فقد تدبرت أمرها برهة، ثم اخترت أن أبيعها على أن آكلها، مجتزءاً باللوزة الظريفة. . . . مأكولاً لذيذاً!

فضحك الأب ملياً لمقالة (فازيلي) ثم قال:

- إن الوقت لم يحن بعد لتبدأ أعمال التجارة يا فازيلي!

- أتراك تستعجل امتهان الحرفة التي تؤثريا صديقي!؟

خيم الصمت برهة، ألفت بعدها (تيكو) إلى (فولوديا) - أبنه الثالث - ثم قال مستغرباً:

-. . . وأنت يا (فولوديا). . . لم تحدثنا كيف وجدت مذاق خوختك!؟

-. . . لا أدري يا والدي!

- لا تدري! كيف؟ إنك لم تأكل واحدتك إذن؟ فأجاب (فولوديا): لقد حملتها إلى (جوشا) إذ علمت أنه مريض طريح الفراش؛ فلما دخلت عليه، وجلست إلى جواره، لم يفعل سوى أن ظل يتأمل الخوخة معجباً، فعرضت عليه أن يأخذها، لعلها أن تعجل شفاءه، بيد أنه رفض. . . ورفض في

إصرار؛ فلم أجد حيلة لفسره على أخذها، إلا أن أتركها، وأنا - منصرف من عيادته - على نضد صغير متاخم لوسادة الرأس في فراشه. وقد وضعتها ثمة. . . في رفق، ودون أن يشعر؛ ثم حييته انصرفت. .!

عندئذ جاش صدر الأب تأثراً لهذه العاطفة الكريمة، وقال في نبرة ناعمة حانية وهو يربت على كتف أبنه:

- إنك يا (فولوديا) كملك رقيق الحس. . . . نبيل المشاعر.!

obeikandl.com

obeikandl.com

حاجتنا من الأرض

زارت بنت المدينة يوماً شقيقها بنت الريف في قريتها الصغيرة، وجلستا إلى الموقد تستدفئان وتتحدثان. . فراحت بنت المدينة وكانت زوجة تاجر غيل تمجد حياة المدينة الزاخرة بالمباهج والزخرف وتتيه على أختها الفقيرة زوجة الفلاح المعدم، وتعرض بحياتها القذرة قفي الريف بين الخنازير والأبقار. وأصغت بنت الريف إلى شقيقتها الحضرية طويلاً ثم قالت قد تكون حياتك يا أختاه أفضل وأنعم من حياتنا نحن الفلاحين، وقد تحصلون في اليوم فوق ما تحتاجون، ولكن لا ننسى المثل القائل (إن الربح والخسارة توأمان)، فكثيراً ما يجد التاجر الغني نفسه بين عشية وضحاها فقيراً يستجدي اللقمة من عابر سبيل. . إن حياتكم أجمل وأرق ولكن حياتنا آمن وأهدأ. . صحيح إننا لا نملك كثيراً من متاع الدنيا إلا أننا نجد والحمد لله ما نقتات به دائماً. . قد يكون عملنا شاقاً مرهقاً إلا أنه شريف مضمون. . . أما أنتم يا أهل المدينة المرفهين فجوكم مليء بالمغريات ولا تأمنون على أزواجكن وزوجاتكم شر الغوايات، كالميسر والخمر والنساء والفاتنات. .

وكان باهوم زوج بنت الريف جالساً في ركن قريب فأعجبه قول زوجته وقال يحدث نفسه. . . حقاً أننا نحن معشر الفلاحين لا نجد لنا متسعاً من الوقت للتفكير في مثل هذه الأمور الفارغة لقد عشت عمري أكد وأكدح، ولولا ضيق رقعة الأرض التي املكها لكنت أسعد مخلوق، وما خشيت

حتى الشيطان. .) وكان الشيطان قابعاً وراء الموقد، وسمع كل ما قيل، وسره زهو باهوم بنفسه وتحديه له. . فقرر أن يمنحه ما يطلبه من الأرض ويرى ما يكون. .

كان لباهوم رقعة أرض صغيرة تقع إلى جوار ضيعة كبيرة تمتلكها بارونة عجوز. . وكانت هذه البارونة صارمة قاسية لا ترحم من تعتدي ماشيته على أملاكها. فكرهها أهل القرية ومن جملتهم باهوم، إذ كثيراً ما كانت أبقاره وماشيته تعتدي على أرضها فيضطر

إلى دفع غرامة ترهقه وتزيد في سوء حالته المادية. وفي ذات يوم أعلنت البارونة عن رغبتها في بيع أملاكها بأثمان بخسة، فتسارع الناس واشترى كل منهم قدر طاقته وقتر باهوم على نفسه وباع ما لديه متن ماشية واشترى بما تجمع لديه مزرعة صغيرة لم تلبث أن جاءته بمحاصيل وافرة فتحسنت حاله وكثر حساده وصاروا يطلقون ماشيتهم على زرعه. فصار يلجأ إلى العنف والقسوة والمطالبة بالغرامات والالتجاء إلى المحاكم، فأثار عليه نقمة الأهلين وحقدهم وباتوا يكرهونه كرههم القديم للبارونة العجوز. وانتشرت يوماً إشاعة بأن كثيرا من أهل القرية أخذوا يرتحلون إلى بلد آخر. ولكن باهوم قرر بعد إعمال الفكر أن يبقى مكانه إذ وجد في ذلك فرصة لزيادة ما يمتلكه من الأرض. ولكن في ذات يوم طرق باب باهوم فلاح عابر وطلب قضاء الليلة في بيته. فرحب به باهوم وقدم إليه العشاء، ثم جلسا يتسامران ويتحدثان. قال الفلاح لباهوم - إني عائد من البلاد الواقعة وراء نهر الفولجا، وهي بلاد واسعة قليلة السكان وقد أخذ الناس يرحلون إليها لاستيطانها، إذ تؤجر الأرض هناك لمن يشاء بأثمان بخسة جداً، والتربة فوق ذلك خصبة تدر على أصحابها محاصيل وافرة. وخفق قلب باهوم لهذا الخبر وراح يحدث نفسه قائلاً

- لماذا يتحتم علي البقاء هنا في هذا البلد المزدحم. . . سأبيع كل ما أملك وأرتحل إلى تلك البلاد وأستأجر بالنقود أرضاً واسعة وأبدأ الحياة من جديد. . . وأخذ باهوم يستفسر من الغريب عن هذه البلاد، وفي اليوم التالي سافر إليها ليتفقد أحوالها، فلما تأكد له صدق قول الغريب عاد إلى قريته وباع كل ما يملك وارتحل مع عائلته إلى مقره الجديد. . . وقضى هناك ثلاث سنوات يستأجر الأرض ويستثمرها حتى أصبح من الأغنياء. . . فبدأ يسأم التبعية لمالك أرضه وهفت نفسه إلى امتلاك أرض خاصة. . وفي ذات يوم هبط على باهوم غريب يطلب غذاء لحصانه، وجلس الرجلان يتحدثان. وقال الغريب - إني عائد من بلاد الباشكير حيث اشتريت 13 ألف فدان بثمن زهيد جداً. إن الأرض هناك لا قيمة لها ويكفيك أن تقدم الهدايا لرؤساء البلد وأن تشرب الفودكا مع من يشربون فيعطونك الأرض التي تشاء. . . واستفسر باهوم عن الطريق إلى هذه البلاد العجيبة. . . وفي الصباح اشترى بعض الهدايا وودع بنيه وزوجته واستصحب خادمه إلى بلاد الباشكير بجد ونشاط. وبعد سبعة أيام بلغ الأرض الموعودة واتصل بالزعماء ووزع عليهم الهدايا ثم عرض حاجته. . . وسأل عن الثمن. . . فقال له الرئيس - إن أسعارنا محدودة - ألف روبل في اليوم. . . ولم يفهم باهوم قول الرئيس فسأله - وأي مقياس هذا الذي تبيعون به الأرض؟ فأجاب الرئيس - نحن نبيع الأرض باليوم - أي أننا نعطيك ما تستطيع أن تدور حوله في اليوم مقابل ألف روبل. . . ولكن هناك شرط واحد وهو أنك تسير مع طلوع الشمس حول الأرض التي تختار على أن تعود إلى المكان الذي بدأت منه مع غروب الشمس. فإذا غربت الشمس قبل أن تعود ضاع مالك ولم تحصل على الأرض. . . وقبل باهوم هذا الشرط فرحاً واتفقوا على أن يبدأ المسير في صبيحة اليوم التالي فهو لا

يريد أن يضيع عليه الوقت. وأوى باهوم إلى فراشه وهو يصور لنفسه أنه سيستطيع أن يدور حول قطعة كبيرة فيصبح من الأغنياء وكبار المالكين. ثم راح يرسم الخطط للمستقبل الحبيب - فتارة يزرع هنا وطوراً أرشده إلى أرض الباشكير. ولما دقق النظر فيه وجد أنه انقلب من يحصد هناك، وتارة أخرى يشتري الماشية ويستثمر صوفها ولبنها. . . وقضى ليلته على هذا الحال مسهداً أرقاً ولم تغمض له جفن إلا قبيل الفجر بقليل. . . وعندئذ تراءى له في منامه زعيم القرية واقفاً خارج خيمته يقهقه ويضحك ملء شدقيه. . . فقام إليه ليسأله عن سبب ضحكه فإذا به يتبين فيه ذلك الفلاح الذي جديد إلى الفلاح الأول الذي قدم من بلاد ما وراء الفولجا وحملق باهوم في الرجل وهو لا يصدق عينيه فإذا بالفلاح ينقلب إلى شيطان رجيم له قرون وحوافر ويرقد أمامه رجل حافي القدمين لا يرتدي سوى قميص وسروال، وليس فيه حس أو حركة. فلما تأمل الرجل الميت جيداً تبين أنه هو نفسه، فهب من نومه فزعاً مذعوراً، فرأى أن الفجر قد انفلق. . . ونسى حلمه المزعج ونادى خادمه وخرج إلى القوم يستحثهم للخروج إلى السهول. وسار القوم حتى وصلوا إلى قمة تل مرتفع وهناك خلع الزعيم قبعته ووضعها على الأرض وقال لباهوم - من هنا تبدأ المسير. وهاهي الأرض الشاسعة أمامك لا يحدها حد فاختر ما يحلو لك وعد إلينا عند الغروب. . . فتهلل وجه باهوم بشراً وسروراً ووضع النقود في القلنسوة، ثم خلع معطفه وشمر عن ساقيه وتزود بقليل من الطعام والماء وحمل على كتفه فأساً، ووقف ينتظر شروق الشمس وهو يتأمل الأرض المنبسطة أمامه وقد أخذته الحيرة في أي إتجاه يسير. وبعد تردد قليل اختار جهة الشرق، وما أن أطلت الشمس برأسها من وراء الأفق حتى انطلق في اتجاهها بسرعة

معتدلة. ولما قطع مسافة ميل أو أكثر حفر في الأرض حفرة وملأها عشباً. ثم أخذت خطاه تتسع كلما ارتفعت الشمس في قبة السماء. واشتد القيظ فخلع مئزره ونظر إلى الشمس فرأى أن النهار ما زال في أوله فأنطلق إلى الأمام لا يحيد يمنة ولا يسرة وهو يردد في نفسه: - كلما أمعنت في السير زاد نصيبي من الأرض. . . ونظر باهوم بعد فترة خلفه فرأى القوم صغاراً كالنمل فقدر أنه قد آن له أن ينحرف عن خط سيره. وكان العطش قد أخذ منه فشرب قليلاً وتابع سيره حتى أحس بالتعب والجوع فنظر إلى الشمس فرأى أن النهار قد انتصف، فجلس قليلاً وأكل. ثم مضى في طريقه الدائري مسافة أخرى طويلة، وكان على وشك الانحراف إلى اليسار مرة أخرى عندما شاهد بقعة أرض كثيرة الخصب فلم يشأ أن يخسرها فدار حولها وحفر عند طرفها حفرة لتدخل في حوزته. . . ثم نظر إلى الشمس فرآها تجري إلى المغيب. . . فكبح جماح طمعه وأدار وجهه إلى ناحية الربوة وسار في اتجاهها مكملاً دورته. ولكن التعب كان قد نال منه وشق عليه المسير. . . كان يتوق إلى قليل من الراحة ولكنه لم يجرؤ على الجلوس فراح يجر رجليه جراً وهو يحدث نفسه - لقد أوغلت في السير حتى بعدت الشقة. . . يا ليتني لم أطمع بالكثير واكتفيت باليسير. . . فها هي الشمس على وشك المغيب. . . فما العمل الآن ومازال أمامي شوط بعيد. . . وهالته الحقيقة وخشي أن يفقد النقود والأرض معاً فجمع قواه وطفق يجري والعرق يتصبب منه الدم يسيل من قدميه. فخلع حذاءه وملابسه قطعة قطعة ولم يترك سوى قطعة تستر عورته. واقتربت الشمس من خط الأفق وتحطمت نفس باهوم حسرة وندماً وتأكدت له خسارته. . . فراح يعدو من جديد وقد تقطعت أنفاسه وتداركت دقات قلبه حتى خشي أن يموت قبل أن يصل إلى الربوة. إلا أن فكرة الموت لم تقعده

عن السيرفواصل الزحف حتى ترامت إلى أذنيه أصوات القوم ونداءاتهم يستحثونه على الجد فجمع قواه وتابع سيره. وكانت الشمس قد لمست خط الأفق، وكان هو قد قارب هدفه. . . هاهو يرى القوم يلوحون له بأيديهم؛ بل وهاهي قبعة الرئيس التي وضع فيها نقوده، وإلى جانبها يجلس الرئيس ممسكاً جنبيه من فرط الضحك. وفجأة تذكر باهوم حلم الليلة السابقة ولكنه قال - لقد أصبحت أملك رقعة كبيرة من الأرض، فهل يمد الله في أجلي لأتمتع بثمرة تعبي. .؟ وتطلع إلى الشمس فرآها تختفي وراء الأفق. . . فقال. . . آه لقد ضاع أملي ولن يقدر لي الوصول إلى القبعة. . . واستجمع بقية قواه وتابع سيره. . . إن القوم سيسخرون منه ولا شك إذا هو توقف عند هذا الحد. . . ووصل الربوة ولكن عندما غابت الشمس عن ناظريه بالمرة. فصرخ صرخة يأس وكاد يسقط. . . ولكنه سمع القوم يستحثونه من جديد. . . فقدرأنهم ما زالوا يرون الشمس من موقفهم المرتفع. . . فعاوده الأمل وأخذ نفساً عميقاً واندفع يصعد الربوة حتى وصل إلى القبعة. . . فرأى الرئيس جالساً إلى جانبها وهو يكاد ينفجر من كثرة الضحك. وعاودت باهوم ذكر الحلم مرة ثانية وأدرك معناه فصرخ وتهاوى على الأرض باسطاً يده نحو القبعة. وصاح الرئيس - ياله من رجل شجاع قدير. لقد أصبح يملك الآن أرضاً جد واسعة وتقدم الخادم من سيده يريد رفعه ولكنه رأى الدم ينبثق من فمه وقد فارقته الروح. وتناول الخادم المعول وحفر حفرة على طول سيده وواراه فيها فكان كل ما احتاجه من الأرض لا يزيد على ستة أقدام.

القاضي السعيد

قام المليك ثملا من الرقص الفاتن على أنغام المزامير رنو إلى جمال الراقصات الباسم. . ويصغي إلى أحاديث الندامى ترن في مسامعه مرجعة أنباء الساحر الرهيب، ذي القوة الخارقة والسحر العجيب، وأقاصيص ذلك القاضي السعيد الفياضة بالغرائب، المملوءة بالأعاجيب!

وأيقظه نسيم السحر المرتعش، فنادى غلامه وقال: سمعت في العشية من صحبتك أن في أقصى المملكة قاضياً واسع الحيلة، عظيم الذكاء، يعرف الكاذب إذا رآه من الصادق، وله في ذلك نكات حلوة وطرائف طلية. . ولقد هفت نفسي إلى رؤيته فهيأ يا غلام جوادي، وأحضر لي زادي، وائت لي بلباس لا يعرفني به أحد من رعيتي، كي أذهب فأرى صدقه من تدجيله.

وبعد ساعة. . انطلق الملك يسري. . بين شعف الجبال وأحضانها، وهو يحث السير ويغذه؛ حتى إذا ما وصل إلى بلد القاضي - وقد ارتفعت الشمس وقاظ النهار - لقيه رجل قد قطعت ساقاه وتهشم وجهه وجحظت عيناه، فاقترب منه، وهو يتكئ على عصوين أسندهما إلى إبطيه. . وأخذ يقبل أقدامه ويطلب إحسانه. فتصدق الملك عليه؛ وهمز حصانه وسار على مهل.

وفرح البائس إذ ضحكت له المنى ولكنه لحق بالمليك وأمسك بأثوابه لا يدعها، فغضب الملك وثار وقال له:

- ما شانك أيها الرجل، وماذا تريد؟ طلبت فأعطيناك.

وشكوت فرحمناك. .!

قال الرجل بصوت يشيع فيه الحزن واللوعة:

أوصلني يا سيدي إلى ساحة المدينة، فأنا يائس عاجز وأخاف أن تطأني الجمال بأقدامها إذ تمشي مشيها الوئيد. . أوصلني إليها يا سيدي والله يجزيك أحسن الجزاء.

ورق قلب الملك وأشفق عليه. فحمله بين يديه وأردفه. ثم انطلقا حتى أتيا ساحة المدينة الكبرى. قال الملك آنذاك:

- ها هي ذي ساحة المدينة أيها الرجل، فاهبط آمنا!

قال الرجل:

- وي! هذا حصاني فلم تريد اغتصابه مني؟ أهذا جزاء من يعطف عليك ويشفق؟ يا للوقاحة! ويل لك من العذاب الذي سيصيبك! هيا هيا دع الحصان وامض إلى سبيلك. وإن لم تفعل فخير لك ولي أن نذهب إلى القاضي السعيد فنسأله، وهناك يظهر الحق ويزهق الباطل!

وشده الملك وعجب من هذا المحتال البائس. ثم ثار وغضب، وأرغى وأزبد، والتف حوله أهل المدينة، فساقوهما إلى القاضي ليحكم بينهما.

وأتيا القاضي يجران وراءهما الناس، وقد جاءوا ليستمعوا إلى حكمه. واستوى القاضي على كرسي مزين بالذهب المتوهج، وبدأ ينادي المتخاصمين فرداً فرداً

وجيء بعالم أصلع الرأس، كث اللحية، حماري الأذنين وإلى جانبه قروي رث الهيئة، ممزق الأثواب، على وجهه إمارات الغباوة، كانا يختصمان على امرأة حسناء على وجهها سحر وطلاوة. . هذا يدعي أنها خليلته، وذاك يقول إنها حليلته. .

واستغرق القاضي في صمت عميق. . . ثم قال:

- دعا حسناءكما عندي وتعاليا إلي غدا

وتقدم جزار إلى جانب بدال. وكان الجزار يرتدي ثوبا مليئا

دماً، وكان البدال يرتدي لباسا زين ببقع الزيت الحية.
قال الجزار:
- لقد اشتريت من هذا الرجل يا مولاي زيتاً ثم عمدت إلى قميصي فأخبأته تحت جيبه. ولكنه هجم علي، وانتزعه مني، فجئنا إليك يا مولاي، أنا أمسك بيدي دراهمي وهو يمسك بتلابيبي لئلا أفر، ولكن الدراهم لي، وما هو إلا سارق أثيم!
قال البدال:
- كذب ما قاله يا سيدي وبهتان. . لقد جاء إلي ليبتاع من زيتي، فملأت له وعاءه، فلما أراد الانصراف طلب مني أن أبدل له قطعة ذهبية بقطع فضية، فرحت أعطيه الدراهم. . . ولكنه فربها يا مولاي، فلحقت به. . . وأحضرته إليك. .
واستغرق القاضي في صمت عميق. ثم قال:
دعا الدراهم عندي وتعاليا إلي غداً. . .!
ونودي الملك والسائل. قال الملك:
- أنا تاجريا سيدي، وهذا لقيني وأنا في طرف المدينة فرثيت له وأشفقت عليه، ثم أعطيته ما يخفف من ألمه ويزيد في فرحه. . فلما انطلقت إلى ما أنا ماض من أجله، لحق بي وطلب أن أوصله الساحة الكبرى. فأردفته. فلما كنا في الساحة الكبرى، طلبت إليه أن يتركني فأبى، وقال هذا حصاني جئت تنتزعه مني. فالتف حولنا الناس وساقونا إليك. هذه قصتي يا مولاي فاحكم بما تريد!. .
قال السائل:
- يا للكذب يا مولاي! لئن كذب وافترى، فما أنا إلا صادق أمين. . كنت أجتاز المدينة ومعي الحصان فرأيته في بعض الطريق. . . فطلب مني أن أوصله إلى الساحة الكبرى فقد أنهكه السير الطويل. فلما أتيت به الساحة قال هذا حصاني.
. .

فاحكم يا مولاي أيدك الله وأطال بقاءك!
وفكر القاضي وقدر. . . ثم قال:
- سأعرف الكاذب من الصادق. . دعا الحصان لدي وارجعا إلي غداً
وتفرق الناس، ومضى كل إلى سبيله، وذهب الملك يفكر في هذا القاضي الذي سماه الناس (السعيد)
أقبل الليل، فجلس الملك يفكر في أمر ذلك البائس المسكين ويتذكره، فملأ صوته المضطرب سمعه وفؤاده، وهو يتساءل عن جزائه وكيف يكون. فلما أضناه التفكير أسلم نفسه للكرى. فنام نوماً عميقاً، رأى فيه من الأطياف ما لا يحصر، ومن الأشباح المرعبة ما لا يحد، وضحك النهار فاستيقظ الملك. . وأخذ يرتدي أثوابه، ثم مضى إلى المدينة ليطوف في أسواقها فلما أجاز ساحة الحي وجد غريمه يتدحرج نحو دار القاضي.
وكان الناس يأتون زرافات زرافات، فقد أعجبوا بالقاضي فغدت نفوسهم في شوق ملح لكل ما يقول. وجاء المتخاصمون فتقدم العالم والقروي. فنظر القاضي إليهما وقال:
- أيها العالم! إنها زوجتك فخذها وامض بها إلى دارك. . . أما أنت أيها القروي، فجزاؤك
خمسون جلدة تنالها في الساحة الكبرى على ملأ من الناس!. . .
وانصرف العالم وزوجته، وأخذ القروي ليجلد
وجيء بالجزار وبائع الزيت، فقال القاضي:
- أيها الجزار! ها هي ذي دراهمك فخذها. أما أنت. . فجزاؤك خمسون جلدة تنالها في الساحة الكبرى على ملأ من الناس!. .
وأخذ الجزار دراهمه. ومضوا بالبدال ليجلدوه
وتقدم الملك والسائل. فقال القاضي للملك المتنكر:

هل تعرف حصانك جيدا؟

- نعم يا مولاي!

- وأنت أيها السائل؟

- وأنا أيضاً يا سيدي!

- اتبعاني إذن. . .

وانطلق القاضي بهما إلى الإسطبل وقد امتلأ بالجياد. فقال للملك: دلني على حصانك. . . فدله الملك، ثم أخرجه وأدخل السائل. . فدله عليه أيضا، فلما خرج القاضي قال: خذ حصانك أيها التاجر، فهو لك، أما أنت فستجلد خمسين جلدة في الساحة الكبرى

وهم القاضي بالانصراف. . . فتبعه الملك وقال له:

- أريد يا مولاي أن اعلم كيف استطعت أن تعرف أن المرأة كانت للعالم، وأن الدراهم كانت للجزار. . وأن الحصان كان لي فقد حار عقلي في فهم ذلك. .!

قال القاضي:

- أما المرأة، فقد أتيت بها إلى داري، وقلت لها ضعي في هذه المحبرة مداداً. فأخذت الدواة فنظفتها، ثم ملأتها مداداً. فعلمت أنها تعلم ذلك من قبل، والدواة لا توجد إلا عند العالم. فحكمت أنها امرأة العالم وليست خليلة القروي. أما الدراهم فقد وضعتها في إناء مليء بالماء، وقلت لنفسي، أن كانت لبائع الزيت فلا بد أن تطفو على صفحة الماء قطرات من الزيت جاءت إليها من يديه. ولكن الماء بقى صافياً، فعلمت أن الدراهم ليست لبائع الزيت وإنما هي للجزار

وصمت القاضي قليلا، فلما طال صمته قال الملك:

- والحصان يا سيدي؟

قال القاضي:

لقد قلبت الأمر بين يدي فلم أجد حيلة أنفع من أن تدلاني

على الحصان، فعرفته أنت كما عرفه السائل، ولكني رأيت الحصان أدار وجهه نحوك، ورفع أذنيه عندما دنوت منه. فلما جاء السائل أرخى أذنيه ورفع إحدى رجليه يريد رفسه، فعلمت أن الحصان لك

فابتسم الملك ضاحكا، ثم تقدم من القاضي فقال له:

أيها القاضي! نعم العدل بك عيناً، لست بتاجر، ولكني الملك!

ودهش القاضي وارتجف رهبة ثم انحنى وقال:

- عفوا يا مولاي.. أنا عبدك

- قم أيها القاضي وسل..

- إن ثنائك علي لمكافأة لي يامولاي، وانحنى ليقبل قدميه

- قم... قم أيها القاضي السعيد.. فلقد صدقت بك...

وآمنت... لقد صدقت وآمنت... ومنذ الغد ستكون لي وزيراً!

obeikandl.com

الشقي المدلل

كانت تقوم على شاطئ البحر الأبيض، وقريبا من الحدود الفرنسية الإيطالية مملكة صغيرة اسمها (مملكة موناكو)، ولعل لكثير من المدن أن تحتال على هذه المملكة بوفرة نفوسها وازدحام سكانها، فأن سكان هذه المملكة ما كانوا يتجاوزن سبعة آلاف! وعلى انه لو قسمت بينهم أراضي المملكة جمعاء لما أصاب المواطن الواحد منهم فدانا! ومع ذلك كله فقد كان لهذه المملكة ملك حقيقي له قصر وحاشية ووزراء، وله أسقف وجيش وقادة.

وعلى أن الجيش لم يكن بالجيش العرمرم الضخم - إذا ما كان عدد أفراده يزيد عن الستين - فهو مع ذلك جيش له خطره وأهميته بالمحافظة على كيان البلاد. . وكانت الحكومة في هذه المملكة ضرائب على الشعب تتقاضاها شأن بقية الحكومات، فضريبة على التبغ وضريبة على الشراب، وضريبة غير هاتين على الرؤوس. . ومع أن الشعب كان كعامة شعوب العالم يدمن التدخين. ويتعاطى الخمور، ألا أن الضرائب الحكومية من ذلك لم تكن تسد حاجات الأمير ونفقات بلاطه وجيشه، لو لم تسعفه ضريبة أخرى من مصدر جديد هو لعبة (الروليت) فكان الناس يتقاطرون من أنحاء أوربا ليقامروا هناك في دار القمار، وسواء اربح اللاعبون أم كانوا من الخاسرين فان لصاحب الدار الحصة المعروفة من المال. وكان يجتمع له بهذا مال كثير يكون النصيب الأوفر منه

للأمير. . وتتضخم أرباح الأمير من هذه اللعبة مرجعة أن دار القمار هذه الوحيدة من نوعها في أرجاء أوربا كلها؛ وإذا كان أمرا الألمان قد منعوا من إقامة أمثال هذه البيوت في بلادهم لما يقع فيها من حوادث الأجرام والأضرار المتأنية عن خسارة وبعض اللاعبين ومغامراتهم ومضاربتهم وانتهائهم عند نزول الكارثة بهم إلى الانتحار بالرصاص، وإذا كان أمير (موناكو) غير متقيد ولا تابع لسلطة من التي يعطيها أمراء الألمان، فقد ألغيتدار القمار عند أولئك وبقيت داره هذه الوحيد في أوربا التي لا قدرة لأحد أن يتعرض لها بشيء، وظل هو محتكرا هذه الأربا.

وكذلك كان الناس يفدون على (موناكو) كان عليما بالمثل القائل (ليس من نتائج أعمال النزاهة والشرف تشييد شوامخ القصور) وعلى انه كان عارفا بأن الميسر ليس من مشرفات الأعمال فأنه لم يجد بدا من إبقاء نظام الميسر على وضعه ليسد حاجته، وليعيش عيشة يرضاها، فكان يقيم الحفلات ويولم الولائم. ويظهرللناس بمظهر الأبهة التي يعدونها في قصور الملوك. وكان يمنح المنح، ويجزل الهبات ويشكل اللجان، ويشرع النظم وينشأ المحاكم. . . وكان يعرض الجيش ويطوف بأنحاء المملكة، ويفعل فعل غيرة من الملوك ولكن في صورة مصغرة كنسبة مملكته المصغرة إلى بقية الممالك!

وكان أهل (موناكو) معروفين بالمسلة وليس العريكة، فليس بينهم مجرم ولا سفاح، حتى حدثت منذ سنوات جريمة قتل كانت الأولى في تاريخ هذه المملكة؛ فأجتمع لها القضاة في يوم مشهود ليتداولوا في شؤون هذه القضية وفق أصول العدل والأنصاف. وكان ذلك الحفل المهيب يضم رجال القانون من محامين وقضاة ومحلفين ومدعين عامين. وقد ظلوا يتدارسون نصوص القانون. ويؤولونها، ويذهبون في

تفسيرها المذاهب حتى اصدروا حكم الإعدام على ذلك القاتل وفق إحدى مواد القانون! وحمل القرار من بعد ذلك إلى الأمير، فقرأه وأصدر الأمر بالموافقة على ما يرتئون!

على أن مشكلة واحدة بقيت لتنفيذ الحكم، إذا لم يكن في المملكة مقصلة ولا كان بها جلاد! فبحث الوزراء المشكلة وقرروا أن يفاوضوا الحكومة الفرنسية في أمر أعارتهم مقصلة وجلاد لتنفيذ حكم الإعدام وطلبوا منها معرفة ما يقتضيهم ذلك من الأجور. ثم أرسلوا بالكتاب إلى رئيس الجمهورية الفرنسية.

وبعد أسبوع ورد جواب الرئيس قائلا (أن تكاليف إرسال مقصلة وجلاد تبلغ ستة عشر ألف من الفرنكات) وعرض هذا على الأمير فعجب من استحالة قطع راس هذا الأثيم إلا بهذا المبلغ الجسيم الذي لا تقوم بشيء من حياته! ثم طلب التفتيش عن طريقة أرخص لا ترهق الأهليين بضريبة جديدة يجبرون عليها، وربما كان من ذلك ثورة جامحة تندلع ألسنتها فتغطى على الأمن في البلاد!

... ودعي مجلس الوزراء للبحث في هذه المشكلة من جديد. . وعندئذ قرر المجلس إرسال طلب آخر إلى ملك إيطاليا ذلك بان حكومة فرنسا جمهورية لا ترعى الود المتبادل بين الملوك وليس أمر ملك إيطاليا كذلك، فإنه - ولا شك - سيرعى حرمة الزمالة التي تربطه بالأمير فيتساهل معه وعلى هذا فقد كتبت رسالة في هذا الغرض وأرسلت، فجاء الجواب: (إن من دواعي غبطة الحكومة الإيطالية تجهيز جارتها بالمقصلة والجلاد مقابل أثنى عشر ألفا من الفرنكات ضمنها تكاليف الإرسال والإعادة) وهذا الأجروان كان اقل من سابقه إلا أن المجرم لا يستحق إنفاق هذا المبلغ عليه، وتكليف الرعية بان يدفع كل فرد منها فرنكين:

وهكذا دعا المجلس الثالث للاجتماع فتداول أعضاؤه الأمر

وتناقشوا في المعضلة لعلهم يهتدون إلى طريقة رخصةفي قتل هذا المجرم. فقال قائلهم: أو لا يمكن تكليف أحد من الجند بقطع رقبة هذا الأثيم؟ وليكن ذلك كيفما اتفق إذ المهم أن يموت! فدعا لذلك قائد الجيش وألقى عليه السؤال. فجمع جنده وسألهم: أفي استطاعة أحدكم تنفيذ المهمة؟ غير انهم يجبوه ولم يرتضوا ذلك منه، وقالوا له (أن ذلك من شأننا - نحن - ولا كان مما سبق أن دربنا عليه!)

هنالك فكر الوزراء وتذكروا فأجمعوا أمرهم على تفويض النظر في القضية إلى لجنتين: عليا ودنيا، وأخيراً تم القرار على الاستعاضة عن حكم الإعدام بالسجن المؤبد والأشغال الشاقة، وكان الأمير بهذا يستطيع أن يرى الرعية رأفته ورقة قلبه، كما أن تلك الطريقة كانت أرخص العقوبات جميعا! ووافق الأمير على هذاالحكم الأخير وأوشك التنفيذ أن يتم لولا أن قامت أزمة جديدة؛ وتلك هي أزمة أيجاد سجن يقضي فيه هذا السجين حياته. على انهم أخيرا وفقوا إلى إيجاد غرفة لأقامته وكانوا به سجاناً يتولى أمر حراسته وإطعامه من مطبخ القصر.

ظل السجين في محبسه تتعاقب عليه الشهور حتى اكتملت عليه سنة تماما؛ ولكن بيننا كان الأمير يفحص ميزانية الدولة ويقلب فيها نظره لاحظ أن فيها باب جديدا من النفقة، تلك هي نفقات سجن هذا المجرم الشقي، ولم تكن هذه بالنفقات اليسيرة البسيطة، ولا كانت بالسهلة القليلة، وإنما كانت شديدة الكلفة ثقيلة الوطأة على ميزانية الدولة! فقد كان المجرم هذا حارس يمنعه من الهرب، ورجل غيره يتولى أمر إطعامه! وفي هذا السبيل صرفت ستمائة فرنك من ميزانية الدولة هذا العام! والأدهى من ذلك أن الرجل في ميعة الشباب صحيح البدن معافى، ولربما امتد به العمر إلى خمسين من

السنين! ولو حسب المرء للمسألة هذا الحساب لم يجدها بالسهولة التي كان يتصور وعلى ذلك فقد جمع الأمير وزرائه وقال لهم: (إن عليكم أن تكتشفوا طريقة غير هذه تكون أخف مؤونة وأقل منها نفقة، فهذه التي اتبعتموها باهظة لا قبل لنا بها!)

وتداول الوزراء الأمر بينهم حتى اهتدى أحدهما إلى فكرة فقال لإخوانه: (أيها السادة، إن من المعقول - في نضري - أن نفصل الحرس فنقتصد نفقاته). غير أن وزيرا آخر اعترض عليه قائلا: إن الرجل سيهرب إن لم يجد من يحرسه.) وهناك رد عليه صاحبه: إن ذلك ما يريدون إذ لا يهمهم أن يهرب)

وتم على ذلك الاتفاق. فرفعوا إلى الأمير تقرير يشرحون له الأمر فوافقهم على ما يرتئون. وفصل الحارس عن عمله وظل جماعة الوزراء يرتقبون المآل حتى جاء موعد الغداء واشتد بالسجين الجوع، فخرج بعد أن طال ارتقابه لحارسه حتى يأس منه - إلى مطبخ القصر وأخذ طعامه منه وعاد إلى غرفته وأغلق على نفسه الباب! وعاد في اليوم التالي فكرر ما صنع بالأمس في الوقت المعين المحدود. وهكذا قبل السجين هذا العناء الجديد، دون أن تخطر له فكرة الهرب من هذا السجن على بال!

وإذا فماذا ترى الوزراء فاعلين؟

هنالك اجتمعوا وبحثوا المشكلة من جديد فقر رأيهم أن يصارحوه بعدم رغبتهم في بقائه، فاستدعاه (وزير العدل) إليه وسأله

- ما بالك لا تهرب وليس عليك حارس يمنعك؟ أذهب حيث شئت فلن يعني بذلك الأمير. فأجاب الرجل: - لعلي أستطيع أن أقول أن الأمير لا يعنيه، ولكن أين المأوى الذي آوي إليه؟ ولا حيلة لي في الحصول على قوتي وقد وصمتموني بأشنع

الصفات بأحكامكم التي أصدرتم علي. وهؤلاء الناس لن يأتمنوني بعد الآن على شيء. ذلك إذا أني اعتدت حياة الكسل والخمول فنحطط بالتدريج. لقد أسأتم إلي حقي، فقد كنتم أصدرتم الحكم علي بالإعدام فلن تنفذوه، استعضتم عن ذلك بحكم الأشغال المؤبدة الشاقة وعينتم لذلك حارساً كان يأتيني بطعامي، غير أنكم - بعد بره من الزمن - عزلتموه فاضطررت إلى الذهاب بنفسي إلى المطبخ للحصول على ما يكفيني من الطعام. ثم إنكم - بعد ذلك - تريدونني على الفرار! كلا يا سيدي، كل شيء يصح إلا ما تريدونني عليه؟ اصنعوا ما بدا لكم وافعلوا بي ما حلا لكم غير أني لن ألوذ بالفرار!

إذاً فكيف؟

واجتمع مجلس الوزراء يبحث المعضلة بحثاً جدياً حاسماً، ولكنهم احتاروا فيما يقررون؟ وترددوا في اختيار النهج الذي يرون اتباع السير عليه. . إن الرجل لن يبرح الديار أبداً. وفكروا واحتالوا فما وجدوا غير منح الرجل (معاشاً) يكفل لهم الخلاص منه! وأنهوا الحل الأخير إلى الأمير قائلين إنه ليس من حل خير من هذا الذي ارتأوه، وهو أن يمنح الشقي معاشاً يقيهم أذاه ويبعده عنهم! فأقر الأمير رأيهم مرغماً وقدر للمجرم الشقي معاشا سنويا قدره (600) فرنك فلما أخذ في ذلك رأيه أجاب.

- أما الآن فقد طاب الفرار! على أن تلزموا أنفسكم دفعه إلي بانتظام.

وهكذا حسمت المشكلة. وأخذ الشقي ثلث جرايته مقدما وغادر المملكة إلى مسيرة ربع ساعة بالقطار! ونزل قرية ابتاع فيها أرضا بالقرب من حدود بلاده وزرعها متجرا بثمارها وغلاتها وعاش في راحة واطمئنان. وكان كلما حان موعد معاشه ذهب فأستلمه ثم اتجه إلى مائدة القمار فقامر عليها

بفرنكين أو ثلاثة مكتفيا بهذا القدر اليسير ورجع إلى مهجره يستأنف حياة الدعة والراحة.

ولعل من حسن طالعه أنه لم يرتكب جريمته الأولى في قطر آخر ترخص فيه أثمان قطع الرقاب وتقل فيه تكاليف الإيداع في أعماق السجون مدى الحياة!

obeikandl.com

obeikandl.com

المحتوى

مقدمة.....ص3
مقهى صورات.....ص21
إيزرهادن.....ص31
الملاك.....ص37
بعد المعركة.....ص63
الخير والشر.....ص71
بشر وشياطين.....ص75
الملك والناسك. . .!.....ص83
إلياس.....ص89
العمل والموت والمرض.....ص97
حبة من القمح كبيضة الدجاج!.....ص103
الخوخ.....ص109
حاجتنا من الأرض.....ص113
القاضي السعيد.....ص119
الشقي المدلل.....ص125

obeikandl.com